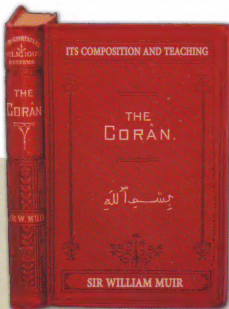


ويليام موير

القرآن

نظمه وتعاليمه وشهادته للكتب المقدسة



ترجمه عن الإنكليزية:

مالك مسلماني



المركز الأكاديمي للأبحاث

الْقُرْآنُ

نظمه وتعاليمه وشهادته للكتب المقدسة

تأليف:

ويليام موير

ترجمه من الإنكليزية:

مالك مسلماني

الْقُرْآن

نظمه وتعاليمه وشهادته للكتب المُقَنَّسَة

The Corān

Its Composition and Teaching; and The Testimony It Bears To The Holy Scriptures

تأليف: ويليام موير

ترجمة: مالك مسلياني

إخراج الكتاب وتصميم غلافه: القسم الفني، التقويم اللغوي: يارا صالح

الناشر: للمركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت: الطبعة الأولى 2024

العراق / تورنتو - كندا

The Academic Center for Research

TORONTO -CANADA

مؤثق بدار الكتب والوثائق الكندية.

Library and Archives Canada

ISBN : 978-1-990131-50-9

naseer.alkaabi@uokufa.edu.iq

كافة حقوق النشر والاقتباس محفوظة للمركز الأكاديمي للأبحاث.

Copyrights©The Academic Center for Research 2024

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء المركز الأكاديمي للأبحاث وانتماءاته.



+964 780 226 2494



facebook.com/acrcadcr



www.acrcadcr.com



info@acrcadcr.com

تمهيد

إنَّ مناسبةَ هذا البحثِ الحاجةَ لطبعةٍ جديدةٍ من «شهادة القرآن للكتب اليهودية والمسيحية» المطبوع في آكرا سنة 1855. وبعد أن تَفِدَّت الطبعة الثانية من هذه الدِّراسة التي صدرت سنة 1860 في الله آباد. فقد طُلِبَ من المؤلف أن ينشرَ طبعةً ثالثة، وبالتالي، أثناء إعداد الطبعة الجديدة أن يستهلَّها بوصف القرآن نفسه، والمنظومة المؤسَّسة عليه.

إنَّ ما تَمَّ القيام به إلى الآن سوف يتكشف، كما يُؤمل، عن بعض النفع بشأن منهج مقارنة القرآن.

وعليَّ أن أعبرَ عن مديونيتي للدكتور فايل على مقدِّمته الرائعة للقرآن؛ (1) والتي اقتبست منها بدون قيد؛ رغم أنني وجدتُ لزماً مخالفة بعض وجهات نظره بصدد القرآن وجوانب الإسلام.

إنَّ كتابَ «شهادة القرآن»، المُشار إليه أعلاه، تُرجم ونُشر بلغاتٍ شرقيةٍ عديدة؛ ويُعاد طبعه هنا، ولكنَّ مع بعض التصحيحات والتعديلات، وهو يشكِّل الجزء الثاني من الكتاب.

ويليام موير

لندن، السابع عشر من أيار (مايو)، 1878.

(1) *Einleitung in den Koran*. Von Dr. Gustave Weil. Zweite verbesserte Auflage. Bielefeld und Leipzig, 1878.

الجزء الأول

الفصل الأول

القرآن يُشرح بسيرة مُحَمَّدٍ

إِنَّ الْقُرْآنَ أساسُ الإسلام، وَإِنَّ مرجعيته مطلقة في جميع قضايا نظام الحُكْم، والأخلاق، والعلم، مثلما هو كذلك في مسائل الدين. إِنَّ عبارة «قَالَ اللَّهُ» قاعدة الحياة اليومية؛ وحيثما يصمْتُ الوحي فَإِنَّ السَّنة تقول كلمتها؛ وعلى أساس ما ثورات أحاديث ومثال مُحَمَّد، كما على أساس تفسير وقياس نصُّ الْقُرْآن، تتأسس مختلف المدارس الْمُحَمَّدِيَّة. لِلْقُرْآنِ السيادة العليا، وكثير من تعاليمه بسيطة، وَتَتَّفَقُ جميعُ الشَّيعِ المتناحرة بأنَّ هذا الأمر ليس موضع جدلٍ. لذلك، إِنَّ أولئك الذين يرغبون باكتساب معرفة بالإسلام، أو يطمحون للتأثير على الفكر الْمُحَمَّدِي، عليهم أن يجعلوا من أنفسهم متأكفين مع الأصول التقليدية والمدرسية للمذهب الذي يتمون إليه، لكن يبقى عليهم مسؤولية أعظم ملقاة على عاتقهم، ألا وهي دراسة الْقُرْآنِ نفسه. إِنَّ توقيير المسلم لِلْقُرْآنِ لهو عظيم. في الْخِلافةِ الْمُبَكَّرَة كانت قدرة تلاوته غيباً تمنح الهيبة والرفعة، وما زال الشرف يُلَازِمُ هذا الْمَكْسَب. إِنَّ معرفة الْقُرْآنِ مصدر قوَّة لكل أولئك الذين عليهم تبادل الفكر مع الْمُحَمَّدِيَّين، وتعظُّم من قدرهم، وترفع منزلتهم في العيون؛ بيد أنَّ الجَهْلَ بمحتوياته لا بدَّ أن يُضعف حامل الإيمان لقلب المسلم. إِنَّ مَنْ يَتَوَجَّبُ عليه التعامل مع العالم الْمُحَمَّدِي، أو يريد فهم مبادئ آليات عمله، يجب عليه، وقبل أيِّ واجب

آخر، أن يُلَمَّ بالقرآن.

لكنَّ القرآنَ إذا ما دُرِسَ بنفسه، فإنَّه على الأرجح الأقلُّ وضوحاً بين كلِّ الكتبِ المقدَّسة. إنَّ الكتابَ المقدَّسي، رغمَ أنَّ الأحداثَ المتعلقةَ بأجزاء من نظمه، لا بل إنَّ بعضَ الأسماءِ وتواريخ بعضِ الكتابِ غامضة في أحيان، فإنَّ المادةَ فيه مرتَّبةٌ للغاية، ونادراً ما تُترك المعنى محلَّ شكٍّ - بغضِّ النظر إنَّ كانت أجزاء قصصية أو وعظية - أمَّا القرآن، فإنَّ الأمر على العكس، فرغم أنَّ الخطوطَ العامةَ لحياة المؤلفِ معروفةٌ بشكلٍ جيّد، إلَّا أنَّه ككلٍّ محلَّ تشوُّش، وغالباً ما يكون المغزى عسيراً على الفهم. إنَّ الأجزاء تتلو الأخرى بدون أيِّ تسلسلٍ تاريخيٍّ، وإنَّ السورَ نفسها غالباً ما جُمِعت من قطعٍ متفرِّقة بدون أيِّ اعتبارٍ لا للزمن ولا للموضوع. ولهذا، فمن أجل بلوغ فكرة واضحة بشأن غاية هذا النظم المفكِّك، ومعنى أقسامه المتعدِّدة، فإنَّ الأمرَ ممكن فحسب، بالارتباط مع دراسة حياة المؤلف. ولتحقيق هذه النظرة، أترح رسم مجمل شديد الإيجاز لخطوط سيرة مُحمَّد العامة، وألزم نفسي إيراد الآيات الضرورية لكي أشرح القرآن.

وُلد مُحمَّد في مكَّة سنة 570 م. وهي مدينة واقعة على طريق قوافل شهير من اليمن إلى سوريا. كانت من غابر الأزمان مشهورةً بكعبتها، وبالأماكن المجاورة لها التي ترتبط بطقوس الحجِّ، وهي حسب التقاليد المحليَّة مكرَّسة لذكرى إبراهيم وإسماعيل. كانت قبيلة قُرَيْش لأجيال عديدة القبيلة الرئيسة، التي تشرف على المسائل الهامَّة المرتبطة بالحرم والحجِّ، كما كانت مهمنةً على مجلس المدينة. أمَّا مُحمَّدُ فإنَّه نشأ في بني هاشم، وهم بطن كريم المخنَّد، على الرِّغم من أنَّه كان آنذاك في طور الانحلال بعض الشيء. وكان جدُّه الأكبر متزوَّجاً من امرأة يثريَّة، وبهذا فإنَّ مُحمَّداً ارتبطَ بإحدى الأسر البارزة في يثرب، وهي أسرة من بني الخزرج. أمَّا أبوه فكان فقيراً، ومات في

رحلة تجارية إلى سوريا قُبيل ولادته بقليل. وحسب عادات مكة، فإنَّ أمه آمنة سلَّمتها إلى مُرضعة من قبيلة بدويَّة؛ حيث بقي الصَّبِيُّ لمدة أربع أو خمس سنوات، تعلَّم فيها خصال الاستقلال، وفصاحة لسان العرق البدوي. ولكنَّ مرضعته انخلع قلبها رعباً جرَّاء نوبات الصَّرع التي انتابت وديعتها لأكثر من مرَّة، وفي الختام اقتنعت بضرورة التخلُّي عن ربيِّها. وبعد مرور عام على ذلك، اصطحبت آمنة الولد لزيارة أقاربها في يثرب، بيد أنَّها في طريق أوتيتها خطفتها يدُ الموت؛ فجعل القدرُ مُحَمَّدًا يتيمًا وله من العمر ستُّ سنوات. وقد أخذه عمُّه أبو طالب، والذي سيبقى إلى آخر أيام حياته وفيًّا للأمانة. وبعد ذلك، فإنَّ الصَّبِيَّ مُحَمَّدًا رافقَ عمُّه في رحلة تجارية إلى سوريا. ولبعض الوقت، فإنَّ مُحَمَّدًا عاشَ بدون أحداث تُذكر. كانَّ أبو طالب فقيراً، فوجد من الصعوبة أن يتكفَّل بنفقة ابن أخيه إضافةً لعائلته الخاصَّة، فدبَّر له مهمَّةً لصالح أرملة غنيَّة (خديجة) للإشراف على قافلة تجارية إلى سوريا. فأبهج صدر خديجة بخدمة وكليها، وحملت له مشاعر حانية، ومع أنَّها كانت تقارب الأربعين من العمر، بينما كان هو ابن خمس وعشرين سنة فحسب، فإنَّها صارت زوجته؛ وأنجبت له ولدين وأربع بنات. وماتَ كلا الولدين، إذ عاش الأكبر ستين، وسُمِّي قاسماً، ولهذا فإنَّ مُحَمَّدًا كُنِّي بأبي القاسم.

في سنة مُحَمَّد الخامسة والثلاثين، فإنَّ الكعبة التي تهدمت نتيجةً لطوفان، بُنيت مجدداً؛ وعندما جاء وقت وضع الحجر الأسود مكانه، اتَّفقت مختلف الأطراف القبليَّة على أنَّ أوَّل داخِل يضعه؛ فوقعت قرعة الحظِّ على مُحَمَّد (الذي كان، بسبب فضيلته وأمانته، يسمِّيه أهل بلده «الأمين») من أجل نادية المهمَّة. وبعد ذلك بقليل، فإنَّ مُحَمَّدًا خَفَّف عن عمِّه أبي طالب عبء عليّ، أحد أبنائه، والذي كان له من العمر خمس أو ست سنوات. فربطت بين ابني العمِّ عُرَى إخاء؛ وبعد حوالي عشرين سنة، سيتزوَّج عليّ فاطمة، ابنة مُحَمَّد الصغرى. وكذلك تشكَّلت بين مُحَمَّد وزيد صداقة وشيجة، وزيد هذا كانَّ

مسترقاً يعود لِخَدِيجَةَ، والذي أَسَرَ من قبيلة مَسِيحِيَّة. أطلق مُحَمَّد سراحه، وتَبَّاه، وصار يُعرف منذ ذلك الحين باسم «زيد بن مُحَمَّد».

كانت المَسِيحِيَّة منتشرة على نطاق واسع بين القبائل السورِيَّة والحدوديَّة، وحتى أَنَّهُ كان ثَمَّة بعض المستوطنات المَسِيحِيَّة في قلب الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّة. ولهذا لم يكن الإنجيل مجهولاً تماماً في مَكَّة، مع أَن ذلك كان في شكل منقوص، ومُغربل. وتحدَّث التقاليد عن «باحثين» أربع عن «الدين الحق»، الذي كان يُتَرَقَّب ظهوره في ذلك الوقت، وأحدهم كان الشيخ ورقة، ابن عمِّ خَدِيجَةَ، الذي قيل أَنَّهُ كان يكتب بعضاً من الإنجيل. والآخر، زيد بن عمرو، الذي زُعم أَنَّهُ عرف في مُحَمَّد النَّبِيِّ الأَتِي. في هذا النوع من المأثور المدَّهش، والتوقعات الاستباقِيَّة بشكل واضح، يمكن أن ندرك حقيقة أَنَّهُ في بعض الجماعات، فَإِنَّ روح البحث حفَّزت عقل العرب. بغضِّ النظر إن كانت قد أُثِّرت بمثل هذه التأثيرات، أو نشأت عفويّاً، إِلَّا أَنَّهُ من المؤكَّد أَن حَيَاة جديدة نشطت في روح مُحَمَّد لَمَّا بلغ الأربعين من عمره. كان قد أمضى خمس عشرة سنة هادئاً وغير مكتوثٍ في كنفِ أسرته، بدون أي شيء يميِّزه (ربَّما باستثناء الوقار الشخصي والفضيلة) عن الرجال الآخرين.

سنيه 40 - 43: والآن بدأ يتوَّحد ويغوص في التأمل، فكان لذلك يعتزل لأيام في زمن معيَّن بغارٍ جَرَاءٍ، الذي يبعد ميلاً أو اثنين عن مدينته، متفكِّراً بالقدر الغامض للإنسان، ولماذا فشل الوحي المتكرِّر في تبديد الظلام الكثيف الذي كان يكفِّن الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّة؛ كان يفرق في خيالات نشويَّة؛ وأخيراً آمن أَنَّهُ مدعوٌّ لأن يكون مُبَشِّراً بالحقِّ ومُصلحاً لشعبه. وعند هذه اللحظة رسم خياله له أَنَّهُ شاهد ملاكاً، يلقي عليه الأمر (المتضمَّن في السورة السادسة والتسعين):

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ؛

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ.

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ:

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.⁽¹⁾

وحسب الأخبار التي وصلت إلينا، فإنَّ الرؤية تبعها انقطاع متناول للوحي (الفترة)؛ ممَّا أغرق مُحمَّدًا في كآبة عميقة، وهمَّ بإلقاء نفسه من ارتفاع شديد التحدر؛ بيد أنه مُنع من قِبَلِ نفس الرسول السماوي. وبعد ذلك بقليل، بينما كان متدنِّراً بشيابه، وتمتدداً على بساطه، فإنَّ الملاك خاطبه بهذه الكَلِمِ:-

(السورة الرابعة والسبعون):

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ!

قُمْ فَأَنْذِرْ!

وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ؛

وَيَسَّابُكَ فَطَهَّرْ؛

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ.

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ؛

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ.⁽²⁾

لقد فُوض هنا بأن يشرِّع وعيِّن رسولُ اللَّهِ وحواريه، ومنذ ذلك الحين فإنَّ الآيات بدأت تتابع متواترةً الواحدة تلو الأخرى.

(1) سُورَةُ الْعَلَقِ: 1/96.

(2) سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ: 1/74.

هذا فيما يخص المأثور بصدد بدايات الوحي في روح محمد. إن بعضاً من السور القصار مصاغة بلغة وجدية، لعلها ألهمت في الحقبة الهادئة الأكبر. ويتوجب على القارئ أن يضع نصب عينيه أن القرآن يعترف بأنه وحي منبثق مباشرة من القادر. وأن محتوياته ليست في أي موضع شخصية؛ أي أنها لا تمثل مطامح فؤاد صاحب الوحي، أو تعاليم النبي نفسه الملهمة من الله. حرفياً، إن الوحي جاء من السماء. إن صيغة «قُلْ، وَقَالَ اللَّهُ»، إنما تسبق كل جملة مفردة، أو يجب أن تُنهم على هذا النحو. وبهذا فإن القرآن بالنسبة للمسلم، هو المعنى الإلهي الحق؛ وهذا ما كان يعنيه محمد بأنه تلقاه.

إن بعضاً من القطع القرآنية المفرطة في عاطفتها هي على الأرجح من نظم محمد لنفسه قبل أن يؤمن بفكرة الوحي الموضوعي المطلق؛ بيد أن المؤمن القويم سيرفض هذه الفرضية بوصفها كفراً. وبرايه، فإن القرآن من البداية إلى النهاية يصدر عن القدير مباشرة.

ولبعض الوقت، وقبل تولي مهمته النبوية، فإن محمدًا كان يشاطر عبء روحه مع أكثر من صديق أقربهم إليه مودة. كانت خديجة مستودع أشواقه الروحية الأول؛ في البدء وعندما كان الهم يتأكله خشية أن يكون مصاباً بمرض شيطاني، فإنها هي التي أراحته، ودفعت بالشيخ ورقة لكي يعيد إليه طمأنينته بالإيمان بالرسالة الإلهية. وبالتدرج، بدأت عصبة صغيرة من الأتباع المخلصين تلتف حوله. كان عليّ وزيد من الأوائل، كما أن أبا بكر، الصفي المخلص، والذي جذب أربعة آخرين (بمن فيهم عثمان [بن عفان، م. 1]) وبعض الأرقاء المحررين إلى الحلقة الصغيرة من المؤمنين.

وإذ بدأت تعاليم محمد تتطور، ويصبح تأكيده على وحدانية الله ورفض الوثنية أكثر صلابة، فإن رجال مكة شرعوا يعارضونه بشكل قوي. وسخروا من فكرة البعث، واستهزؤوا بالآيات على أنها أقوال شاعر مجنون، وصاروا

يضطهدون المؤمنين. وكان مُحَمَّدٌ بمأمن بسبب حماية أبي طالب، بيد أن أولئك الذين لا حماية لهم كان يتعرَّضون لاضطهاد قاسٍ؛ ولهذا فإن مجموعة من أحد عشر شخصاً، وبعضهم مع أسرهم، هربت من البلد، ووجدت ملجأ لها عبر البحر الأحمر، لدى بلاط الحبشة (615 م).

سنة 615 ميلادي: وكان عثمانُ مع زوجته رقية، ابنة النبي، من جملتهم. بعد انسلاخ بضعة أشهر على هذه الهجرة وقعت حادثة غريبة، إذ تأقَّ مُحَمَّدٌ إلى تسوية مع أهل بلده، باعترافه بألھتهم في منظومته، بوصفها شفعاء لدى الإله الأعلى. وبينما كانت قُرَيْشٌ جالسة حول الكعبة، بدأ مُحَمَّدٌ يتلو عليهم السورة الثالثة والخمسين:

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى

وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. ⁽¹⁾

تلك الغرائق العلاء

وإن شفاعتهنَّ لثرتجى.

شعر الملأ القرشيُّ بالتنازل، فقاموا بالسجود لإله مُحَمَّدٍ. لكن فؤاده اضطرب بقوة؛ ولم يمضِ كثير من الوقت، حتَّى جاءه جِبْرِيلُ يقول له: إنَّه نطق بالآيتين البغيضتين (السطرين المشدَّدين) تحت تأثير الشيطان؛ فتمَّ استبدالهما بإدانة لا تسوية فيها للوثنيَّة، ولم يعد بعد ذلك يعيل قلبه إليها:

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى؟

تِلْكَ إِذَا قَسَمَ ضِيزَى

(1) سُورَةُ النَّجْمِ: 53/ 19 - 20.

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ. (١)

وبسبب ذلك فإن قُرَيْشاً استأنفت الاضطهاد أكثر شدة من أي وقت مضى. وإذا كان المهاجرون إلى الحبشة قد عادوا على أساس خبر التسوية؛ فإنهم هربوا مجدداً الآن إلى الحبشة، وبتزايد عدد المهاجرين، فإن عددهم ناهز تدريجياً المئة شخص. في ذلك الوقت لقيت قضية الإسلام تعزيزاً بشكل غير متوقع من خلال اعتناق شخصيتين باسليتين ومؤثرتين: حمزة، عم النبي، وعمر [بن الخطاب، م.]. وإذا انتاب القلق قُرَيْشاً بسبب من الجبهة الصارمة التي صارت في حيازة مُحَمَّدٍ وأتباعه، فإنها شكلت بالتالي تحالفاً ينص على تعليق كافة أشكال التعامل مع المسلمين وداعميهم. ووقف أبو طالب، والهاشميون إلى جانب ابن عصبيتهم بإخلاص، رغم أنه نفسه وكثيرون من العشيرة كانوا غير مؤمنين برسالة مُحَمَّدٍ، ولذا الجميع إلى «حي أبي طالب»، لمدة سنتين أو ثلاث، بقوا فيها مقطوعين عن الاتصال مع العالم الخارجي.

سنة 617 - 619 ميلادي: و فقط في زمن الحج، فإن النبي كان قادراً على مواصلة نبوته؛ وإذا كان محل إهمال أبناء بلده، فإنه لقي اهتماماً نسبياً من القبائل الأخرى التي ألقى عليها مواعظه.

كان القرآن، الموحى في هذه الفترة، يكتسي سمةً مختلفةً بشكل متظم. إن السور أطول، وما زلنا نلقى الآثار المألوفة للانفعال المبكر، والأسلوب صار أكثر وداعة وأكثر نثرية. إن ظواهر الطبيعة، وتكيفاتها إلى حاجات الإنسان، أوردت للبرهنة على وجود الكائن الأعلى والعناية الإلهية الكلية. ثمة أوصاف مسهبة للحجيم والجنة الماديين بشكل عام، كما للبعث. وكان يُغرس في النبي الثبات والصبر، ويُشد من عزمه للصمود بمثال الرسل الذين سبقوه، من

الجزيرة العربية واليهود، إضافة لتجلد شهداء نجران المسيحيين. وبرز أفق جديد يخص الاحتكام للكتب السابقة واليهود، والذي صار مُحَمَّدٌ يقوم به تكراراً في القرآن، بوصفهم شهداء على دعاويه. إن موقفه محصن بالقصص الطويلة والمستطردة من تاريخ العهد القديم، مثل خلق وسقوط الإنسان، الطوفان، قصص إبراهيم، داوود، سليمان، والتي ترد في بعض الأحيان بلغة الكتاب المقدس تماماً، بيد أنها مصبوعة ومحرفة بالرواية الحبرية والأخيلة، وفي أحيان كثيرة بالخرافة المحلية. وثمة وحي يهودي بشكل بين، بيد أنه ليس لدينا الوسائل للقول من أين اقتبس. وقد اتهم مُحَمَّدٌ من جانب قُرَيْشٍ بالانتحال، والاختلاق. ﴿قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَهَا فِيهَا تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾⁽¹⁾، فأجاب النبي: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾⁽²⁾ كانت الآيات في الواقع دليلاً جديداً على إلهامه.

سنة 620 ميلادي: في خاتمة المطاف فشل الحصار رغم قسوته في تحقيق مرامه. إذ إن أسى الكثيرين على شذائد الحصار خدمت مُحَمَّدًا وأتباعه. في السنة العاشرة من نبوته فإن المنع ألغي وعاد الهاشميون إلى حرية الحركة. بيد أن خديجة سرعان ما قضت نحبها، ولحق بها أبو طالب. وإذا كان متشابهاً بالفقدان المزدوج، وبانسداد آفاق قضيته، فإن مُحَمَّدًا توجه برفقة زيد فقط إلى الطائف، المدينة التي تقع حوالي ستين ميلاً إلى الشرق من مكة، لكن دعوته، والتي دامت عدة أيام، لم تلقَ من رجال الطائف أذنًا صاغية، وفي النهاية فإنه طرد من قبل لفيف الأهالي، وقد أصابه وابلٌ من الحجارة بجراح. وما إن استراح لدى طريق عودته، لدى نخلة، حتى خيلت إليه رؤيا، مجموعة من الجن تحلقت حوله بتوقي لسماع القرآن واعتناق الدين الجديد. ورجع إلى مكة بتوقعات مظلمة.

(1) [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 25/5، م.]

(2) [سُورَةُ الْفُرْقَانِ: 25/6، م.]

سُورَةُ الْأَحْقَابِ (46)، وسُورَةُ الْحَجِّ (72): بعد شهرين من موت خديجة فإنَّ مُحَمَّدًا تزوّج سودة، أرملة أحد المهاجرين إلى الحبشة، وخطب عائشة، ابنة صديقه أبي بكر، التي كان لها من العمر آنذاك ستّ أو سبع سنوات لا غير. وفي النهاية انبثق الأمل من حيٍّ غير متوقع. ذلك أنّه لدى حلول موسم الحجّ السنوي، فإنَّ عصبّة صغيرة من مصلّين يثريّين انجذبت وأُستعملت في منى إلى دعوة الإسلام، وفي العام التالي، فإنَّ عددهم صار اثني عشر، وقد التقوا بِمُحَمَّدٍ في نفس البقعة، فأعطوه عهد الولاء.

سنة 621 ميلادي: وفي يَثْرِب وجدت دعاوي النّبّي الجديد استجابة سريعة. إذ كانت الظروف كلّها مواتية. فكانت هنالك عدّة قبائل يهوديّة استوطنت منذ زمن في الجوار المتاخم؛ وديانة وكتاب اليهود، اللذين بدأ مُحَمَّدُ الآن يستند إليهما على أنّهما من دعائمه الرئيسة، كانا مألوفين هناك. لقد كانت يَثْرِبُ تعيش على مدى سنوات في فوضى النزاع الأهليّ؛ فكان حزباً الأوس والخزرج متساويين تقريباً، ولم يتمكّن أحدهما من السيطرة على زمام الأمور. وقد أرسلَ مُحَمَّدُ معلماً من مكّة إلى يَثْرِب، فانتشر الإيمان الجديد بسرعة مذهلة.

في مكّة كان يسود هدوء ما قبل العاصفة. بقي الجانبان على حذر من بعضهما، فكان كلّ طرف يراقب الآخر. كانت سورُ هذه الحقبة تعكس روحاً هادئة وثقة متغطرة، مع تحذيرات عرضيّة من غضب الإله ضد المدينة الأثمة. ولم يكن ثمة أملٌ بأيّ نجاح إضافيٍّ في مكّة؛ كان مُحَمَّدُ يرنو نحو الشمال.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (17): كانت أحلامه الحقيقيّة تكمن هناك. لقد أُسرِيَ به ليلاً إلى المعبد في القدس؛ ومن هناك (كما تقول الروايات) صعد إلى حضرة الله نفسه، حيث تلقّى منه أمر الصلاة خمس مرّات يومياً.

سُورَةُ الرُّومِ (30): كما أنه، جازف أيضاً بأن يتنبأ بأن النصر سيكون حليف هراكليوس بسرعة ضد أعدائه الفارسيين.

سنة 622 ميلادي: ومجدداً جاء وقت الحج، فوجد مُحَمَّدٌ نفسه محاطاً بجماعة متحمسة من سبعين مريداً من يَثْرِبَ، الذين أعطوا عهداً في شُعبٍ منزل في مِنى لاستقباله والدفاع عنه بالحياة والمال. وفي الحال اتَّخذ قراراً بترك المدينة العاقبة والعاصية، وأعطى أمراً لأتباعه بالهجرة إلى يَثْرِبَ، قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بهاء. وبذلك فإنهم تركوا وطنهم وبيوتهم، وانطلقوا سراً إلى يَثْرِبَ أرسالاً، حيث بلغ الرِّقْمُ بسرعة حوالي المئة والخمسين، بحسبان النساء والأولاد. وفي النهاية فإنَّ مُحَمَّدًا مع أبي بكر وعليّ وأسرهم، بقوا لوحدهم تقريباً. وقد أربك هذا الانعطاف غير المتوقع قُرَيْشًا، والآن فإنها عقدت اجتماعاً؛ وصُف في القرآن على هذا النحو: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. (١) لكنَّ مُحَمَّدًا حذّر من خططهم، ولهذا فإنه فرّ إلى كهفٍ في جبل ثور، قرب مكّة؛ وبعد ثلاثة أيام شق طريقه إلى يَثْرِبَ متملصاً من مراقبة أعدائه.

سُورَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 40: إن يوم هروبه سُمِّيَ عهد الهجرة سنة 622 م.

إن أجزاء القرآن التي تعود إلى السنوات الأخيرة في مكّة، تكرر نفس الحجج المذكورة من قبل ضد الوثنية، والاعتراضات التي أثارها الكافرون؛ وبراهين الصفات الإلهية؛ والحكايات الكتابية والخرافية؛ مع تصاوير حيّة وأحياناً مسرحيّة للجنة والنار. ومع اقتراب نهاية هذه الحقبة سنجد إشارات إلى الهجرة الوشيكة. إن السور تصبح أكثر طولاً (غالباً ما تحتل عدّة صفحات)،

(1) سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 8/ 30.

والأسلوب بقي وديعاً وأكثر صنعة، بيد أنه بين الحين والآخر هنا وهناك، ثمة انفجارات من المجازات شديدة وشعر متقد.

إنَّ ملمحاً جديداً يتصل بالمسيحية قد أصبح الآن تحت الملاحظة. في السور المبكرة فإن عقيدتنا نادراً ما ذُكرت إلا بشكل ضمني.

سُورَةُ مَرْيَمَ: 19/ 12؛ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 33/ 3؛ سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 5/ 110:

إنَّ الآيات التي تتصل بالإنجيل حقاً لها قليلة نسبياً على طول القرآن؛ بيد أن اثنتين أو ثلاثاً تقدّم تفصيلاً كبيراً، وتروي قصص ميلاد يوحنا المعمدان ويسوع؛ والأولى منهما أعلنت بعد عودة مُحَمَّد من الطائف بقليل. ويوجد بعض الآيات تتعلق بمعجزات ربنا، وإشارات قليلة إلى الرُّسل، وقصة النيام السبعة، وهي مرسومة بألوان أكثر خيالته.

سُورَةُ الْكَهْفِ (18): وتتوافق قصص الإنجيل عموماً مع مستهل إنجيل لوقا المبسطة أحياناً بنفس كلماته؛ بيد أنها تحفل بمعجزات طفوليّة، مثلما ما نجد في إنجيل الطفولة.

سُورَةُ النَّسَاءِ: 4/ 157: إنَّ صلب المسيح منكراً؛ وعشاء وعماد المسيح غير مبينين، ويبدو من مفهومه للثالوث (العقيدة التي ينكرها بسخط) أنه ينظر إلى مَرْيَم العذراء على أنها واحد من الأقانيم. وهو يحتكم إلى الإنجيل كما إلى الكتب الخمسة في تأكيد على رسالته؛ وإن قطعه العلاقات في يَتَرَّب مع اليَهُود سيقوده لاحقاً إلى الحديث بشكل أكثر لطفاً بصدد المسيحيين منه بشأن اليَهُود. إذاً، رغم أن بعض أجزاء الإنجيل كانت معروفة بدون شكٍّ لِمُحَمَّد، فإنه ممّا لا شكَّ فيه أن ذلك كان في صيغة أشدَّ تشظيلاً، وأن معرفته بالتعاليم المسيحية كانت في الواقع، هزيلة ومشوّعة.

إِنَّ الْإِسْلَامَ (والذي يعني التسليم للو) يستوعب كلَّ الوحي السابق.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2/ 62؛ سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 5/ 69: إِنَّ الْخَلَاصَ كَانَ مضموناً لِلْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ الْأَتَقِيَاءِ، بل حَتَّى لِلصَّابِئِينَ، كَمَا لِلْمُسْلِمِينَ. إِنَّ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ كَانَتْ مَوْجَّهَةً بِشَكْلِ رَئِيسٍ لِلْعَرَبِ. وَلَمْ يَكُنْ يُفْتَرَضُ بِهَا أَنَّهَا الرِّسَالَةُ الْوَحِيدَةُ، وَأَنَّهَا مَوْقِفٌ مُضَادٌّ مِنْ كُلِّ مَا عَدَاهَا. إِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ مَجْرَدَ نَذِيرٍ وَمُبَشِّرٍ فَحَسَبَ. إِنَّ فِكْرَةَ الْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ لَمْ تَكُنْ قَدْ دَخَلَتْ فِي ذَهْنِهِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ. لَكِنَّهُ حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَقْبَةِ طَالِبَ أَتْبَاعِهِ بِالطَّاعَةِ الْمَطْلُوقَةِ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا فِعْلًا. إِذْ كَانُوا مَلْزَمِينَ ضَمَنًا بِـ «أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، إِلَى جَانِبِ الْعِظَاتِ حَوْلَ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَالْإِحْسَانِ، وَالتَّوَاضُّعِ، وَالْإِسْتِقَامَةِ، وَالتَّزَاهَةِ، وَالطَّهَارَةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ. فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ ظَهَرَتْ شَعَائِرُ مُحَدَّدَةٍ: الصَّلَاةُ، وَطَقْسُ الْكَعْبَةِ الَّذِي فُرِضَ بِوصفه دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِ. كَمَا نَجِدُ قِيوداً يَهُودِيَّةً بِصَدَدِ بَعْضِ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ، لَكِنَّ الْأَوَامِرَ الْوَضْعِيَّةَ حَتَّى الْآنَ كَانَتْ قَلِيلَةً.

لَقَدْ أَعَادَتِ الْهَجْرَةُ إِلَى يَثْرِبَ رَسْمَ الْمَشْهَدِ، وَمَارَسَتْ تَأْثِيرًا عَلَى طَائِعِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ هُنَاكَ. لَقَدْ اخْتَفَى وَثْنِيو مَكَّةَ، وَاحْتَلَّ مَكَانَهُمْ «مَنَافِقُو» يَثْرِبَ. وَلَمْ يَكُنْ هُنَا مِنْ مَعَارِضَةٍ عَلَنِيَّةٍ لِامُحَمَّدِ وَلَا لِمَبَادِئِهِ؛ لَكِنْ، مَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ حَزْبًا قَوِيًّا كَانَتْ تَدْبُ فِي قَلْبِهِ عِقَارِبُ الْحَسَدِ مِنَ الْقَادِمِ الْغَرِيبِ، وَهَيْمَنْ تَيَّارٌ خَفِيٌّ مِنَ الْاِسْتِيَاءِ، وَالَّذِي طَفَا عَلَى السَّطْحِ بِشَكْلِ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَعِيمٍ الْحَزْبِ، الَّذِي كَادَ يَصْبِحُ زَعِيمَ يَثْرِبَ لَوْلَا التَّحَوُّلُ الْجَدِيدُ فِي مَصَائِرِ مَدِينَتِهِ. إِنَّ الْأَهَالِي السَّاخِطِينَ بَقُوا مَوْضِعًا لِإِدَانَةِ الْقُرْآنِ الْمُرَّةِ، إِلَى نِهَايَةِ رَحْلَةِ النَّبِيِّ، عِنْدَمَا اخْتَفَوْا بِدَوْرِهِمْ مِنَ الْمَسْرَحِ قَبِيلَ نَجَاحِ الْإِسْلَامِ.

إِلَّا أَنَّ الْمَوْضُوعَ الْمَعَالِجَ الْأَبْرَزَ فِي وَحْيِ يَثْرِبَ الْمُبَكِّرِ كَانَ الشَّعْبُ الْيَهُودِيَّ وَدِيَانَتَهُ. فِي الْبَدْءِ لَمْ يَأَلْ مُحَمَّدٌ جَهْدًا لَجَذْبِهِمْ إِلَى قَضِيَّتِهِ. إِذْ أَسْهَبَ

بشأن سيرة أنبيائهم وشخصياتهم البارزة، وسعى بواسطة إعادة قصّ عناية الله في أرض مصرّ وأماكن أخرى، إلى إثارة عرفانهم، وحثّهم على نشر البيّنة في صالحه، والتي كان يؤكّد أنّ كتبهم كانت تحتويها؛ لكنّه أخفق. باستثناء بعض المنشقين، فإنّهم رفضوا الإقرار بدعاويه النبوّة. سرعان ما أنضجت الخيبة عداوة، وأولئك الذين نؤشّدوا من قبل لأن يكونوا شهداء، فإنّهم أدينوا الآن بوصفهم عمياناً وأشراراً، وأنّهم سلبوا الذين قتلوا أنبياءهم ورفضوا المسيح.

بقيت الكتب الخمسة والإنجيل موضع احتكام؛ لكنّ رسالة مُحمّد غدت أكثر فأكثر - وفي نطاق أوسع دائماً - تهدف إلى إعادة هؤلاء الذين انحرفوا عن عقائد الكتب المقدّسة إلى الإيمان القديم المقدّس. إنّ إبراهيم لم يكن يهودياً ولا مسيحياً؛ بل مسلماً حنيفاً؛ ودين إبراهيم صار الآن في نهاية المطاف مُستعاداً وتأمّناً في القرآن. والكتب تنبأت بمجيء النبيّ؛ واليهود اعترفوا به على أنّه أحد أنبيائهم؛ بيد أنّهم انحرفوا بتعصّبهم الأعمى وحقدهم، وقد زوّروا بيّتهم. ﴿وَقَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾⁽¹⁾ إنّ سور هذه الحقبة تزخر بالآيات التي تقوّي وترسم هذه النتيجة.

في سته الأولى في يثرب، اشتغل مُحمّد بشكل رئيس في بناء مسجد كبير، وتوفير مساكن له ولأتباعه، الذين كانوا محلّ استضافة وكرم ضيافة أهل يثرب. وفي البدء كان مُعترفاً بسلطة النبيّ من قبل معتنقي الإسلام الجدد؛ لكنّها توسّعت تدريجياً، بحيث أصبح الزعيم الفعليّ لكلّ المدينة.

سُورَةُ النَّسَاءِ: 4/ 43؛ سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 5/ 5: لدى وصول مُحمّد يثرب اتّبع طقس الصلاة، المسبوق بالوضوء، ذا السمة اليهوديّة، وهو نشأ نتيجة الممارسة أكثر من كونه فرضاً إلهياً. وفي الأوقات الخمسة المحدّدة في اليوم،

(1) [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2/ 74-م.]

فإن المؤمنين يدعون بالأذان إلى صلاة قصيرة في المسجد، والتي يمكن أن تؤدى أيضاً في أي مكان؛ وجعل يوم الجمعة مميزاً كي تتم ممارسة شعيرة أكثر عمومية ومهابة، بعيداً عن قداسة السبت اليهودي.

سُورَةُ الْجُمُعَةِ (62): لم يرد ذكر الجمعة في أي مكان في القرآن، ما عدا في الحقة المتأخرة، عندما وُيخ المؤمنون لتركهم المساجد لدى وصول القوافل، وانفصالهم عن النبي بينما هو في المنبر واقف. في بداية الأمر تقيد محمد ببعض من أوقات الصيام وأعياد اليهود؛ إلا أن بغضه المتزايد لليهود قاده إلى تأسيس منظومات خاصة مختلفة.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2/ 187: وفي مستهل عهده كان يصلي مثل اليهود صوب القدس؛ لكن القبلة تبدلت الآن صوب الكعبة. وكذلك، صيام الكفارة الذي كان يتقيد به محمد؛ بيد أنه في العام التالي أمر باعتبار شهر رَمَضَانَ شهر الصيام، فحاطبتهم الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ⁽¹⁾﴾. ولإكساب التنشئ الإضافي عن اليهودية مزيداً من التمايز، والاقتراب أكثر من ديانة مكة، فإن عيد الأضحى ألزم به في يثرب في نفس اليوم الذي يوافق الطقس في منى، وبدلاً عن شعيرة الأضحية (Sacrifice) اليهودية.

السنة الثانية للهجرة: في السنة الثانية للهجرة، دُشنت مرحلة جديدة في القرآن بالمواقف المعادية لقريش.

فحتى الآن، وكما رأينا، كان محمد يعلن عن نفسه أنه مجرد نذير. فهو ليس «حفيظاً» على الكافرين. وحتى في يثرب، أعلن في البدء: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي

(1) سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2/ 183.

الذين^(١) لكن مبادئ الإسلام خضعت تدريجياً لتغير. فقدّمت قوافل مكّة فرصة مغرّة للانتقام، وقد وُجّهت عدّة سرايا ضدها. وتقدّمت إحداها وفق أوامر مختومة، أدّت إلى مقتل مكّي والاستيلاء على قافلة وأسرى مرافقها القرشيين. حدث ذلك في شهر رجب المقدّس، ولدى سماع مُحَمّد الخبر تبرا من هذا الإجراء على أنّه انتهاك للحُرّمات، ووضع الأسرى والغنائم في الحجز.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2 / 187: لكن لم يمضي وقت طويل حتّى جاء الأمر الإلهي بسوّج الاعتداءات، وحتّى في الأشهر المقدّسة، كونها أقلّ خطورة من الوثنيّة ومعارضة الإسلام، فأزال الوحي القلق. وبعد ذلك يمتلئ القرآن بالتحريضات على القتال لأجل الإيمان، والإدانات المولعة بالحرب ضدّ قرّيش.

إنّ مُحَمّداً يتخذ الآن موقع الحاكم الثيوقراطي، والقرآن يوظف بحريّة لجعل أوامره عموميّة. ما زال يُزعم أنّ كلّ كلمة صادرة من الإله، وأنها موجّهة إلى ممثله في الأرض. إنّ الأوامر الروحيّة تمتزج بالقضايا الأخرى، بيد أنّ الوحي صار أكثر فأكثر لسان حال حكومة النبيّ. إنّ «الأوامر العامّة» فيما يتعلق بالنصر أو الهزيمة، توزيع الغنائم ومعاملة الأسرى، تشريعات القانون الجنائيّ والحقوق المدنيّة، مراسيم الزواج، العبوديّة، الطلاق، والصايا، كانت تنزل لتنظيم الحياة والعلاقات الاجتماعيّة، وامتيازات مُحَمّد العائليّة الخاصّة، تبدو أنّها اختلطت بشكل غير مميز مع التعاليم الدينيّة في صفحات القرآن.

جرت أوّل مواجهة عسكريّة مع قرّيش بعد حوالي ثمانية عشر شهراً من الهجرة، في بذر. حيث واجه مُحَمّدُ برفقة جيشه المكوّن من 305 من الأنبايع (كان ثلثاه مكوّناً من البشريين) قوّة أكبر منه بثلاث مرّات عدداً، فتمكّن من قتل عدد كبير من أعدائه، كما أسّر العديد. وبذلك لم يهرب قرّيشاً فحسب، بل عزّز

(1) سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2 / 256، سُورَةُ النِّسَاء: 4 / 80.

بقوة موقعه كزعيم يثرب.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3) وسُورَةُ الْأَنْفَالِ (8): كان في هذه المعركة برهان رسوليته الدامغ؛ ذلك أنه بفضل تدخّل الإله، وبفضل المساعدة التي مدّهم إياها بالملائكة ذوي العلامات الواضحة (﴿الْمُسَوِّمِينَ﴾) فإنّ النصر قد تحقّق. وبعد سنة تقريباً فإنّ قُرَيْشاً أخذت بثأرها. إذ تقدّمت صوب المدينة بقوة مكونة من 3000 مقاتل. فالتقاهم مُحَمَّدٌ في موقع أُخِذ، وهو تلة تبعد ثلاثة

سنة 3 هجرية: أميال عن يَثْرِبَ، على رأس حوالي 700 من أتباعه فحسب؛ ذلك أنّ صفوفه قد ضعفت بتخلّف عبد الله بن أبيّ. وقد مُني في هذه المعركة بهزيمة ساحقة، وخسر سبعين رجلاً بما فيهم عمّه حمزة؛ كما أنّه نفسه أصيب بجراح وفقد وعيه.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3): ومع ذلك فإنّ يدَ اللَّهِ هي العليا دائماً. إنّ الهزيمة كانت ضروريةً لتمييز متخاذي العزيمة من المؤمنين الصادقين، والنجاح، كما جرى من قبل في بدر، سوف يتحقّق. وماذا لو كان مُحَمَّدٌ نفسه قد قُتِل؟ إنّ اللَّهَ هو المسبّب، وسوف يبقيه منتصراً على قيد الحياة. وبالتالي بخطاب بارع، فإنّ النصر والهزيمة كانا خدمةً لقضيّته.

بعد نصرٍ بذرٍ بقليل، فإنّ تعارضاً نشأ بين مُحَمَّدٍ وبنِي قَيْنِقَاع، إحدى القبائل اليهوديّة التي تقطن على تخوم يَثْرِبَ، فطوّق حصنهم؛ فاستسلموا. وقد حُفِظَتْ أرواحهم حسب مناشدة حليفهم عبد الله بن أبيّ، لكنّهم رُحِّلوا للمنفى. وبعد ذلك بحوالي سنة ونصف السنة، فإنّ مُحَمَّداً وجد سانحةً للدخول في منازعة مع بني النضير، وهي قبيلة يهوديّة أخرى، تسكن في ضاحية حسنة التحصين قرب بساتين تمر، وبعد أن حاصروهم لمدة ثلاثة أسابيع، فإنّ مُحَمَّداً قبل عرضهم بتسليم أراضيهم وحدائقهم إليه، والرحيل عن أراضيهم. إنّ السورة

التاسعة والخمسين [الحشر، م.] مكرسة لهذا الموضوع. إذ سُوِّغَت للنبي خرق قوانين العرب الحربية التي كانت تقضي عدم قطع وحرق أشجار النخيل، كما سُخر من الفريق الساخط لعجزه عن مساعدة حلفائه اليهود.

السنة 4 هجرية: في السنة الرابعة للهجرة لم تقع معركة فعلية. قام قادة الجيشين في معركة أُخِذَ بتحديد موعد للقتال، على أن يجري في سوق بدر في العام التالي. وتوجه كلا الطرفين إلى الموقع. بيد أن قرناً المرهقة بالجفاف توقفت في الطريق وعادت من حيث أتت؛ بينما عسكر المسلمون تسعة أيام في النقطة المحددة، واشتروا وباعوا في السوق. في السورة الثالثة [آل عمران، م.] عبر عن الرضا الإلهي بالنتيجة.

السنة 5 هجرية: في السنة الخامسة وخلال سرية ضد بني المصطلق، قبيلة جاحدة، فإن شجاراً نشب بين رجال من يثرب ومهاجرين من مكة. إن كلمات متبجحة قادت للتضارب،⁽¹⁾ فبدأ عبد الله بن أبي يوبخ بسخرية أولئك الناس الذي جلبوا على أنفسهم هذا الدفق من الغراء الوقحين؛ فقال: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾،⁽²⁾ فاستشعر محمد لدى سماع هذا التعبير الصفيق خطر المشاعر الملتهبة، فأعطى أمراً لمسير طويل وفوري. وبعد ذلك جاءت السورة الثالثة والستون [المنافقون، م.] وتتضمن تائيباً مرأاً لعبد الله وأتباعه المتذمّرين.

(1) بعد نجاح الهجوم على بني المصطلق، وبينما كان جيش المسلمين متمركزاً قرب مورد ماء يُسمى المُرَيْسِيع، فإن أجيلاً لعمر بن الخطاب اشتبك مع حليف لبني عوف الخزرجي، فقام كل واحد منهما ينادي عسيه، وهذا ما دفع عبد الله بن أبي ليقول غاضباً: «لقد كاترنا المهاجرين في ديارنا. والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول: اسْمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْكًا. أنا والله إن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ»، م.

(2) سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ: 63 / 8.

كانت هذه السنة لافتة بسبب من فضائح محدّدة مرتبطة بحياة مُحَمَّدٍ الأسريّة. إذ كان لديه الآن خمس زوجات، إلا أنّ اثنتين منهنّ كانتا التحقتا للتو بحريمه، وبكُلّ الأحوال كان متيّماً بمفاتن زوجة ابنه بالنبيّ زيد، الذي استبان الأمر، فطلقها، فصار بوسعها أن تزوّج بصديقه. وقد تردّد مُحَمَّدٌ في أخذها زوجة له، ذلك أنّها كانت تُعتبر قرابة محرّمة حسب الأعراف العربيّة.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ (33): بيد أنّ الهوى كان لا يُكبت؛ وفي النّهاية فإنّ وحيّاً جاء، فَرُغَ فيه خوفه البشريّ؛ فارسی قاعدة بأنّ النبيّ لا يشكّل قرابة فعليّة، ولكي: ﴿لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾⁽¹⁾. وبهذا فإنّ النبيّ اقترن بزَيْنَبَ.

بعد أشهر قليلة فإنّ قضيةً دقيقة أخرى جرت، بيد أنّها من طبيعة مختلفة، ففي إحدى سراياه الكثر. والتي كانَ مُحَمَّدٌ يصطحب فيها زوجة أو أكثر من زوجاته، وهي الحملة ضد بني الْمُصْطَلِقِ، وعندما كانت الحملة تقترب من خاتمته ولدى أوبته، فإنّ خيمة ومحفة عائشة حُملا بدون اكتراث، بينا كانت هذه غائبة لبعض الوقت، ولدى عودتها فإنّها وجدت نفسها في الظلمة وحيدة تماماً. وإذا كانت تتوقع بأنّ الخطأ سيُكتشف، فإنّها جلست تنتظر النجدة، وفي غضون ذلك، مع بعض التأخّر، وصلَ أحدُ الأتباع⁽²⁾، فوجدها في ورطتها، فعرض عليها ركوب جملة، ثُمَّ إِنَّهُ قَادَهَا إِلَى يَثْرِبَ. ولدى رأى ذلك، فإنّ الأهلالي قاموا باستنتاجات شرّيرة. ومُحَمَّدٌ نفسه اعتزل عائشة، فأنكفأت هي إلى بيت الأب.

انقضت عدّة أسابيع على هذا المنوال، وفي الختام أخبرت السماءُ مُحَمَّدًا براءتها؛

(1) سُورَةُ الْأَحْزَابِ: 33/37.

(2) هو صفوان بن المُعْطَل السُّلَمي، م.

سُورَةُ النُّورِ (24): وَسُنَّ قَانُونٍ يَطْلُبُ أَرْبَعَةَ شُهُودٍ عَيَانَ لِإثْبَاتِ تَهْمَةِ الزَّوْنِي؛
وفي حال الفشل فإنَّ التهمة ستلقى عقوبة بوصفها قذفاً. وأرجعت عائشة،
ولقي متهموها عقوبة الجلد.

وفي هذا الوقت فإنَّ أوامرَ محدَّدة صدرت تفرض الحجاب على النساء
لدى خروجهنَّ من المنزل. وهذا كان أكثر إلحاحاً في حالة زوجات النبي،
اللواتي مُدُن بمضاعفة العقوبة في حال آتين بفاحشة؛ فهنَّ لسنَّ كأحد من
النساء، كما طُلبَ منهنَّ ألاَّ يَخْصُصْنَ بِالْقَوْلِ ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾⁽¹⁾؛
وفي الختام، فإنَّ غيرَ مُحَمَّدٍ قد هدأت بالوصية بأنهنَّ لا يجب أن يتزوجن
ثانياً، ولا بعد موته.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ (33): إِنَّ الْإِلْزَامَ الْمَفْرُوضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ عَلَيْهِمْ
معاشرة زوجاتهم المتعدِّدات بمساواة، كان مخفِّفاً من قوَّته لصالح النبي.

ومع اقتراب نهاية السنة نفسها فإنَّ قُرَيْشاً، بجيش من أربعة آلاف مقاتل،
زحفت صوبَ يَثْرِبَ مجدداً. فقررَ مُحَمَّدٌ عدم المجازفة ثانيةً بالاشتباك خارج
المدينة، فقام بتحصين موقعه بخندق عميق، وقام بمواجهة العدو من ورائه.
وعلى مدى خمسة عشر يوماً من الحصار الذي كان ضاغطاً بشكل مرعب
للغاية ومهدداً لِيَثْرِبَ، عندها قام جمع مرهق ومتضايق من وطأة الطقس،
بالرحيل فجأة. فبدأ مُحَمَّدٌ يلقي درعه جانباً، عندها جاءه الملاك جبريل، فقال:
«يا مُحَمَّدُ أَوْضَعْتُمْ أَسْلِحَتَكُمْ؟»، ثم أضاف: «ما وضعتِ الملائكة السلاح...
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ يَا مُحَمَّدُ بِالمسير إلى بني قُرَيْظَةَ». وقد كانت هذه هي القبيلة
اليهودية الوحيدة الباقية في الجوار. لقد اتَّهَمَتْ بأنَّها استمعت إلى عروض
قُرَيْش، وحُوصرت من قبل جيش المسلمين. وبعد أربعة عشر يوماً، أصيبوا

(1) سُورَةُ الْأَحْزَابِ: 32/33.

ببأس كبير، فاستسلموا بدون شروط. فقام المسلمون بقطع أعناق الرجال البالغين في مجموعات، الواحدة تلو الأخرى، برقم يتراوح ما بين 600 إلى 800؛ وأما النساء (وقد احتفظ النبيّ بواحدة منهنّ لنفسه) والأولاد، فإنّهم بيعوا كأرقاء. وتعالج السّورة الثالثة والثلاثون [الأخزاب، م.] هذا الحدث، حيث حذّر الأهلالي من جبن «المنافقين»، وأعتبر أنّ الحكم الصادر بحقّهم من الله، وفي السّورة وصف لإبادة اليهود.

السنة 6 هجرية: في السنة السادسة للهجرة فإنّ مُحَمَّدًا فُكِّرَ بمشروع زيارة مَكَّةَ سلميًّا عبر تأدية شعائر الحجّ، وقد استجاب عددٌ قليلٌ من الحلفاء البدو للدعوة. وبالرغم من ذلك، اكتسى الموكب بزّي الحجّ، وكان عددهم 1500. لكنّ قُرَيْشًا، المرتابة بالمخطط، رفضت دخولهم؛ ولهذا فإنّهم خيّموا خارج التخوم المقدّسة، في الحُدَيْبِيَّة، وبعد مفاوضات متطاولة، وُقِّعَت هدنة. وقد علّقت الأعمال الحربيّة لمُدّة عشر سنوات؛ وأعطيت القبائل حقّ الدخول في عهد مُحَمَّدٍ؛ ومُنحت حرّيّة الدخول في عهد مُحَمَّدٍ لمن شاء من العرب. وكان على الحجاج العودة من فورهم دون دخول مَكَّةَ، بيد أنّه اتَّفَقَ على السّماح لهم بأداء الحجّ في السنة التالية. وخلال المفاوضات، فإنّ عثمان كان قد ذهب رسولاً لقُرَيْش، وإذ تأخّرت عودته، فإنّ شائعة انتشرت بأنّه عُذِرَ به. فتجمّع الحجاج حول النبيّ، وعندما كان واقفاً تحت شجرة السَّنَط، فإنّهم بايعوا بأنفسهم بحماسة للوقوف إلى جانب صهره. والمشهد المثير عُرف بـ «بيعة الشجرة»، وإلى هذا أشارت السّورة الثامنة والأربعون: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ⁽¹⁾﴾. وفي نفس السّورة فإنّ الهدنة سُمِّيت: ﴿فَتَحًّا مِّثْنًا⁽²⁾﴾؛ وبالفعل كانت الهدنة نصرًا حقيقيًّا لمُحَمَّدٍ، ذلك أنّه اعترف

(1) سُورَةُ الْفَتْحِ: 48/18.

(2) سُورَةُ الْفَتْحِ: 48/1.

به على أن له قوّة مساوية ومستقلّة. بيد أن أتباعه كانوا كارهين للهدنة؛ فهذا من سخطهم بوغدهم بفتح قريب وغنائم وافرة في مكان آخر، وتمّ هنا استثناء الأعراب المتخلفين كعقوبة قاسية على تقاعسهم.

سُورَةُ الْمُتَحَنِّنَةِ (60): وفي سورة أخرى، والتي نزلت في هذه الفترة تقريباً، فإنَّ مُحَمَّدًا حُدِّرَ من الولاء والموءدة مع الكافرين. كما أنَّ القواعد وُضعت لمعاملة النساء المهتديات اللواتي يأتين من مَكَّة؛ وأُلغيت رابطة الزواج بين المؤمنين وزوجاتهم غير المؤمنات اللواتي بقين في مَكَّة، وسمح بأن تُعَوّض بائنة الأولى عن الأخرى.

السنة 7 هجرية: بعد أشهر عديدة فإنَّ الوعد بالفتح تحقّق بوفرة عبر الحملة ضدَّ يَهُودَ خَيْبر، والذين تقع أراضيهم على بعد عدّة أيام شمال مَكَّة؛ هناك حصل مُحَمَّدٌ على غنائم وافرة وأراضي واسعة له ولأتباعه. وقد مرّت السنة السابعة للهجرة بخلو من الأحداث، وفي الختام فإنَّ الحجَّ المؤجّل أديّ بسلام حسب الاتفاق المبرم.

السنة 8 هجرية: في السنة الثامنة، جرى فصل جديد في حريم النَّبِيِّ، وأعطى مناسبة لآيات لافتة مثل تلك التي تنزّلت بشأن زينب. إذ كَانَ مُحَمَّدٌ قد أرسل قبل ذلك بعام مبعوثين لدعوة ملوك الأرض للإيمان الحقّ. ولم يتلقَ من أيّ واحدٍ منهم جواباً مرضياً، باستثناء المقوقس، حاكم مصر، الذي أرسل جارتين ضمن هدايا أخرى، واللّتين كانتا أختين، وحسب القانون الإسلاميّ فإنَّ إحداهما كانت تحلُّ له، فاختر مارئة. وفي السنة التالية أنجبت له ولداً، سرعان ما مات في طفولته. وقد أثار ولعُ مُحَمَّدٍ بالجارية القبطيّة استياء زوجاته الأخريات، والتي فجأته إحداهنَّ في غرفتها الخاصّة مع مارئة؛ فقدّم عهداً بأنَّ يحزّم على نفسه عشرتها إنَّ أبقت المسألة طيّ الكتمان. لكنّ لم يكن بالوسع إخفاء الفضيحة، ووجد مُحَمَّدٌ نساءه باردات لا يحملن الودّة؛ فاعتزلهنّ.

وعلى مدى شهر عاش مع مارية فقط. وقد جاءه وحى حول هذه الحادثة، يوبّخه لأنه حرّم على نفسه ما يحلّ له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾⁽¹⁾، كما سمح له الوحي بالتحلل من قسَمِهِ، وأن يهدّد الزوجات بغضب الله والبشر، وأضاف: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثِيَابٍ وَأَبْكَارٍ﴾⁽²⁾. وليس لدينا من الوسائل لمعرفة إن كان مُحَمَّدٌ أراد الاحتفاظ بأمثال هذه الآيات في القرآن؛ لكن بكل تأكيد لا يوجد في الحديث ولا في القرآن نفسه، ما يمكن أن يقود إلى الافتراض بأنّه كان خجلاً من هذا الضعف والتحرّر اللذين ظهرا من هذه الوقائع، أو حتى أنّه كان يشعر بإحراج من الخزي الذي لحق به.

في هذه السنة، تلقت قوات مُحَمَّدٍ هزيمة منكرة في مُؤتة، على الحدود السورية، حيث قُتل صديقه زيد. وعلى أي حال، فإنّ أفقاً واسعاً ظهر أمام الإسلام؛ إذ أنّ خرقاً غير مباشر للمعاهدة من جانب قُرَيْشٍ قابله مُحَمَّدٌ بتوقي، فخرج على رأس عشرة آلاف مقاتل ليدخل مَكَّةَ فاتحاً. وإذ عامل المدينة المغلوبة بتجملٍ وسماحة رائعين؛ فإنّ جميع قاطنيها ناصروا قضيتَه؛ وفي غضون عدّة أسابيع سجد أن زعماء قُرَيْشٍ الذين كانوا ذات مرة أعداء للدودين قد زحفوا تحت راية مُحَمَّدٍ.

كانت القبائل البدويّة المجاورة أكثر استعصاءً. فتمركزوا سريعاً عند الطائف؛ حيث دار الاشتباك في وادي حُنين. كان القتال ينذر بعواقب خطيرة على صفوف مُحَمَّدٍ، إذ بينما كانوا يسرون في رتلٍ عبر ممرّ ضيق، وقعوا في فوضى نتيجة لكمين العدو الذي هاجمهم بشكل عاصف. وقد احتشد

(1) سُورَةُ التَّحْرِيمِ: 66/1.

(2) سُورَةُ التَّحْرِيمِ: 66/5.

المسلمون لدى النداء، الذي لامس عاطفة مزدوجة: «يا أصحاب سُورَةُ الْبَقَرَةِ! يا أهل بيعة الرضوان!»⁽¹⁾ فردوا البدو على أعقابهم، وحازوا نصراً تاماً، إضافةً لغنائم عظيمة. وبعد محاولة فاشلة للاستيلاء على الطائِفِ بالحصار، فإنَّ مُحَمَّدًا وُزِعَ الغنائم، وتوجَّه إلى مقرِّه. ومن أجل كسب قلوب زعماء مَكَّةَ، فإنَّه منحهم عطايا خاصةً وكبيرة لدى قيامه بتوزيع الغنائم، وهذا ما أثار تذمُّر الأتباع الأقدم، وقد تمكَّن من تهدئة خواطرهم بتأكيد احترامه، وبعزمه عدم ترك يَثْرِبَ أو العودة إلى مَكَّةَ للعيش فيها. وفي السورة التاسعة [التَّوْبَةِ، م. 1] سَوَّغَ التطبيق الخاصَّ للغنائم، وكذلك صور الرعب في حُتَيْنَ، وعُزِّي النجاش النجاشي إلى مساعدة الملائكة.

السنة 9 هجرية: ألفت قوَّة مُحَمَّدٍ بظلالها الآن على شبه الجزيرة العربيَّة، وعُرفت السَّنة التاسعة للهجرة بـ «عام الوفود»، وهي التي جاءت من كلِّ حذب، لأجل الإقرار بسيادته، وتلقَّى التعليمات لشروط الإسلام: الصلاة، الزكاة، والصَّيَّام. وقد كان بعض الزوَّار أبناء صحراء وعِري الأخلاق؛ ولدى وصول إحدى مجموعاتهم بابه، فإنَّهم نادوا مُحَمَّدًا بصوت عالٍ كي يخرج إليهم. وَمُحَمَّدٌ وهو رجل هادئ ومعتز بنفسه، دَغَّ عنك أنَّ لديه تقديرًا جديرًا لكرامته، لم ينظر إلى هذه الحادثة على أنَّها تافهة؛ لذلك فإنَّه أَمَرَ في التنزيل (السورة التاسعة والأربعون، المُحْجَرَاتِ) بوجوب مخاطبة النَّبِيِّ بنبذة أكثر لطفًا وخضوعاً.

في صيف هذا العام جرت حملة ثَبُوك، وهي آخر حملة قادها مُحَمَّدٌ. وكانت تهدف إلى إرهاب القبائل السورِيَّة، والتي كانت حُرُكت من قِبَل السُّلطة الرومانيَّة للاحتشاد على الحدود. إنَّ الفريق الضعيف الهَمَّة في يَثْرِبَ، وحتى بعضاً من

(1) سُورَةُ الْبَقَرَةِ، السُّورَةُ الثَّانِيَّة، وهي الأولى في ترتيب النزول في يَثْرِبَ. وأصحاب الشجرة، أي الحُدَيْبِيَّة.

أتباع مُحَمَّدٍ المخلصين، كانوا يخشون الحرب ومشقات المسير، فتخلفوا، بينما أظهر البعض أشدَّ درجات النشاط، فساهموا بشكل واسع بتجهيز العساكر.

سُورَةُ التَّوْبَةِ (9): وبعد حملة ناجحة، حيث قَدَّم عِدَّة رؤساء مَسِيحِيِّين ويَهُود خضوعهم، فَإِنَّ مُحَمَّدًا عاد وألقى خطبةً لاذعة ناقمة ضدَّ المتمارضين، الذين سبَّوا بغيابهم بذرائع زائفة الغضب الإلهي. وأما أولئك الذي اعترفوا صراحة بذنبيهم، فإنهم عُولِموا بلين أكثر، وأما «البكَّاءون» فهم المؤمنون الفقراء الذين تَجَمَّعوا على عجزهم عن تجهيز أنفسهم للمسير، فإنهم ذكروا بمديح خاص⁽¹⁾.

إِنَّ سُخْطَ مُحَمَّدٍ اتَّقد في نفس الفترة تقريباً ضدَّ فريق قام ببناء مسجد في الضواحي، بغاية انشقاق. ولم يؤمِّر مُحَمَّدٌ بهدم البناء فحسب، بل إِنَّه وصم بُيَّانَهُ بأنَّه أُسِّس: ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ⁽²⁾﴾. على أيِّ حال كان للزمرة المتمردة القليل من التأييد في يَثْرَب، وبعد موت عبد الله بن أبي بَقِيل، فإنَّها اختفت كلياً عن مسرح الأحداث.

في هذا السنة، فَإِنَّ الطَّائِفَ قَدَّمت آيات الخضوع، ولم يكن بعد الآن من معارضة في الجزيرة. وعلى هذا، لَمَّا اقْتَرَبَ شهر الحجِّ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا أرسل عليّاً ليلقي على الحجيج «البراءة»، ووفق ما جاء فيها فَإِنَّه بعد أربعة أشهر فَإِنَّ النَّبِيَّ يتحرَّر من كافَّة العهود الأخرى، وأمر بشنُّ الحرب على الكافرين الذين لم يعتنقوا الإسلام. ولم يعد لأحد، ما عدا المسلمين، حقُّ الاقتراب من

(1) البكَّاءون: يذكر ابن إسحق إِنَّهم سبعة من البشريين ويعدُّد أسماءهم. ويُشار إليهم في القرآن: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَبَيُّضَ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا، أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ سُورَةُ التَّوْبَةِ (9/92)، م.

(2) سُورَةُ التَّوْبَةِ (9/109).

المسجد الحرام، ولا ينال (كما أعلن) الكافرون الجنة.⁽¹⁾

في الحقبة المتأخرة من حياة مُحَمَّدٍ فَإِنْ اتَّبَعَهَا أَقْلٌ أُولَى بِشَأْنِ الْيَهُودِ أَوْ بِشَأْنِ الْمَسِيحِيِّينَ. فهو لم يتلقَ منهم التأييد المعنوي الذي توقعه؛ وبالفعل فَإِنْ هدفه قد أحرز، ولم يعد من حاجة لدعمهم بعد الآن. وفي هذه المرحلة، ومع غياب الاهتمام بهم، فَإِنْ موقفه نحو الْمَسِيحِيِّينَ صار غير ودي؛ ونحو الْيَهُودِ غداً مرأً. وقد وصل إليه في يَتَرَبَّ وفدٌ مَسِيحِيٍّ من نجران، برئاسة أسقف، ودخل في جدلٍ مع النّبي. وعندما ازداد النقاش حدّة؛ فَإِنْ مُحَمَّدٌ تحدّى خصومه بوضع القضية تحت امتحان القسم: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾⁽²⁾.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3): إِنَّ هَذَا التَّحْدِيّ الغريب سُجِّلَ في القرآن. وفي الختام فَإِنْ مُحَمَّدٌ أُمِرَ بمحاربة ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ العصاة. وهم الْيَهُودُ وَالْمَسِيحِيُّونَ ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾⁽³⁾. وأنزلت اللَّعْنَةُ على كلا الفريقين لأنَّ الْيَهُودَ قالوا:

سُورَةُ التَّوْبَةِ: 3/ 29 - 35: ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ؛ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾⁽⁴⁾، ولأنّهم:

(1) إنَّ البند الأخير. (وكذلك تحريم الطّواف حول الكعبة عراً) لم يظهر في السورة التاسعة فحسب، بل يرد في بعض الآيات الأخرى، مثل سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 85)، وسُورَةُ الْفَتْحِ (48/ 12). وكان ذلك - وهو أمر لا احتاج إلى إضافته - تناقضاً مباشراً مع تعاليم مُحَمَّدٍ الباكرة.

(2) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 3/ 61.

(3) سُورَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 29.

(4) سُورَةُ التَّوْبَةِ: 9/ 30.

﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُءُوبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. وإذا كان ورد ذكر الأحبار والرهبان من قبل بشكل طيب، فإنهم الآن: ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبَسُ رُءُوسٍ بَعْدَ آبِ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَفْهَمُونَ قَدْ قُوتُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ﴾⁽¹⁾. أمّا بشأن الكتب نفسها، فإن مُحمّداً لم يذكر كلاً من العهد القديم والجديد، من أوّل أمره إلى خاتمة مطافه، إلّا باحترام وتوقير عميقين.

إنّ حياة مُحمّدٍ قد اقتربت الآن إلى نهايتها، عندها اصطحب زوجته في السنة العاشرة للهجرة، برفقة عدد واسع، حيث أدى «حِجَّةُ الْوَدَاعِ»⁽²⁾، ذات الشّعائر المجردة الآن من كلّ علاقة وثنية. ففي جبل عرفات المقدّس، فإنّه تلا آيات محدّدة، والتي تنتهي بالآية الثالثة من السورة الخامسة [المائدة، م.]: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، ولدى عودته إلى يثرب فإنّه حثّ النّاس على أداء واجباتهم المختلفة: الاجتماعية، الأسرية؛ وأعلن مساواة كلّ مؤمنٍ مع أخيه، وقُدسيّة الحياة والملكيّة. وفيما بعد تلا آيات من السورة التاسعة، التي نسخت «النسيء»⁽³⁾. كما حذّر من غواية الشياطين، الذين سيسعون إلى ضلال المؤمنين وحتى في المسائل التافهة والعديمة الأهميّة، وقد ختم: «لقد أتممت لكم رسالتي... وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه».

سنة 11 هجرية: وبعد ثلاثة أشهر فإنّ مُحمّداً سقط مريضاً؛ وفي الثامن من حزيران (يونيو)، سنة 632 م، لفظ أنفاسه، وله من العمر ثلاث وستون سنة.

(1) سُورَةُ التَّوْبَةِ: 31 / 9.

(2) سُورَةُ التَّوْبَةِ: 34 - 35.

(3) جرت حِجَّةُ الْوَدَاعِ في ذي الحِجَّةِ 10 هـ / آذار (مارس) 632 م.

(4) [سُورَةُ التَّوْبَةِ: 36 - 37، م.]

الفصل الثاني

جمع وترتيب القرآن

في حياة مُحَمَّد لم تجر محاولة لجمع الآيات الوفيرة التي يتألف منها القرآن في كتاب واحد. فكانت الآيات تدوّن من قبل صديق أو تابع يؤدي مهمة الكاتب حين إلقاء الآيات من وقت لآخر، أو كانت تودع الذاكرة في البدء وفي زمن لاحق بعض الشيء دُوّنت. ولهذه الغاية فإنه استعملت موادّ بدائية كان يستعملها العرب، مثل سعف النخل، الجلود، ألواح الحجر، أو كتف الماعز أو الجمال. لم يكن ثمة من ترتيب منهجي لهذه المواد. وكان يوجد فعلياً سورٌ مميزة؛ ومن المحتمل أن الجزء الأكبر من الوحي كان مرتباً خلال حياة النبي، ومتداولاً في هذه الصيغة لأجل القراءة الخاصة، ولأجل التلاوة في الصلوات اليومية⁽¹⁾. وبعض السور كان قصيراً، ومنفرداً؛ وكانت أخرى، أكثر طولاً، وفي أوقاتٍ مختلفة كان يُضاف إليها حسب أمر مُحَمَّد، الذي كان يأمر بوضع آيةٍ محدّدة في سورة ما. ولم يكن ثمة من مكان خاص لهذه المواد؛ لكنّ لدينا سبباً للاعتقاد أن الجزء الأكبر، وعلى الأقلّ السور الأكثر أهمية، كانت محفوظة في سكنى إحدى زوجات النبي (الذي لم يكن له غرفةٌ مستقلة أو دار إقامة خاصة به)، أو أنه ترك في رعاية الكتّاب أو من دَوّنوا في البدء. وعلاوة على ذلك، فإنه استودع بتوقيير ورع في ذاكرة الناس؛ وإنّ نسخ العديد من

(1) تعني «السورة» الصف، السلسلة، مثل نسق القريميد في حائط.

السور أو الأجزاء، سيما تلك الأكثر تلاوة لدى المناسبات المعتمدة، ومن أجل العبادة العامة أو الخاصة، كانت وحتى قبل الهجرة بحياة أشخاص كثير، قد حفظت بعناية دينية وحتى مفرطة. وما إن انتشر الإيمان، فإن المعلمين أُرسلوا إلى مختلف القبائل في أنحاء الجزيرة العربية لتعليم المهتدين الجدد قواعد الإسلام؛ وقد حمل هؤلاء معهم الآيات الأساسية إما في صيغة مسجلة أو عن ظهر قلب بشكل لا يُمحى (إذ كان العرب يملكون حافظات ذات قدرة مذهلة).

كان ذلك هو حال الأشياء لدى وفاة مُحَمَّد، وقد بقيت كذلك على مدار سنة. وبعد معركة اليمامة، والتي قُتل فيها العديد من قراء القرآن، فإن خطر ترك الوحي في هذه المجموعة المضطربة أصبح مائلاً بقوة في ذهن عمر، الذي ذهب إلى الخليفة أبي بكر، وقال له: «إنَّ القتل قد استحرَّ بالقراء، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقراء في سائر المواطن فيذهب القرآن، وقد رأيت أن تجمعوه». وقد تفهم أبو بكر حكمة هذه النصيحة؛ فعين زيداً [بن ثابت]، رئيس كتبة النبي، لهذه المهمة؛ وبهذا فإنَّ زيداً بحث عن مختلف سور وأجزاء القرآن في كل مكان، فجمعه «من الرقاع والعشب واللخاف»⁽¹⁾ وصدور الرجال. وإذ حُرِّرت مخطوطة القرآن على هذه النحو، فإنَّها سُلِّمت لحفصة، إحدى أرامل النبي، من أجل حفظها، وقد بقيت النصّ المعياري خلال عشر سنوات من خلافة عمر.

يبد أن تفاوتاً مختلف الدرجات دبَّ في نسخ عديدة من هذا الجمع، فافتنع الخليفة عثمان بضرورة تطبيق معالجة واضحة. فعين زيداً لتنقيح عمله السابق؛ وكانت الاختلافات بشكل رئيس في اللهجة والعبارة، ولهذا سُمِّيت مجموعة من ثلاثة قُرَشيّين ثقةً للعب دور قضاة نهائيين في القضية. فُبُحث عن مختلف القراءات في جميع أقاليم الإمبراطورية، حيث تمَّ الجمع الجديد في صيغة لغة

(1) اللخاف: الحجارة، م.

قُرِئَ الصافية التي كان مُحَمَّدٌ يتلو بها وحيه. وضوعفت النسخ، وأُرسلت إلى المدن الرئيسة بوصفها المراجع الميعاريّة. وُجِّعت كلُّ النسخ السابقة، وأُحرقت. إنَّ تنقيح زيد تداولته الأيدي بثبات. والتزم به بحرص شديد، وبهذا ليس ثَمَّةُ إلَّا قرآنٌ، ونفس القرآن قيد التداول في تخوم العالم المُحمَّديّ الواسع، وإنَّ القراءات المختلفة غير معروفة تقريباً، وقد انحصرت الاختلافات القليلة في صيغ أحرف الصوت والنقاط اللهجويّة، والتي اخترعت في عهدٍ لاحقٍ، ولا تشكّل جزءاً من الأصل، أو من تدوين زيد.

وثَمَّةُ ضمان كبير بأنَّ عملَ زيد أنجز بإخلاصٍ؛ وبالفعل، فإنَّ قبولَ القرآنِ من قِبَلِ عليٍّ وشيعته، أعداءِ عثمانَ العائرِ الحظِّ، هو الضمان الأوثق على أصالته. ومن الممكن أنَّ بعضاً من الأجزاء الأبرك القصيرة الأجل، والتي تلاها مُحَمَّدٌ قد هُجرت قبل موته، وعلى هذا فإنَّها بقيت خارج الجمع؛ لكنَّ التوقيع الورع الذي نظرَ من خلاله مجموع المسلمين في البدء إلى الوحي على أنَّه كلمة الله، والتقوى التي استودعته الذاكرة، والمعطيات بأنَّ النسخ وُجدت حتّى في عهد رسالة مُحَمَّدٍ المبكرة، وحقيقة أنَّ جمعَ زيد خرج بسرعة وبشكلٍ غير مُفَنِّدٍ - إنَّ كلَّ ذلك لا يترك شكّاً في الذهن بأنَّ القرآنَ الذي نقرؤه اليوم يحتوي على نفس الكلمات التي ألقاها النبيّ.⁽¹⁾

بيد أنَّ ثَمَّةَ معضلةٍ في القرآنِ، فنحن لسنا متأكّدين قطُّ من السياق. فبينما بعض السُّور، لا يبيِّنُ القصيرة، والأجزاء الغنائيّة والقصصيّة هي أكثر أو أقلُّ كمالاً، يفترض أنَّها مدوّنة في صيغة تلاوتها أوّل مرة، فإنَّه يسود عبر مجموع العمل إهمالٌ كُلِّيٌّ للتعاقب الزمنيّ. فليس ثَمَّةُ فواصل وفراغات مريعة فحسب، بل إنَّ الآيات المتأخّرة تسبق الأولى بشكل ليس بالنادر. إنَّ الآيات جُمِّعت

(1) عُرض الموضوع بتفصيل كبير في الفصل الأوّل من مقدّمة كتاب «حياة مُحَمَّدٍ»، والذي نُشر كملحق في الطبعّة الثّانية.

بساطة ساذجة. وكان يُكره إخضاع المواد للفحص البشري لقداستها، وعلى هذا فلدننا هذه الكتلة المتشابكة. فسيفساء من الأجزاء التي جُمعت بشكل بدائي واثقافي بحيث أن التصميم هو على الأغلب مشوه ولا يمكن فهمه.

في عمل يمتد على مدى سنوات عديدة، ومؤسسي على أحداث يومية متغيرة، ويحمل بشكل جليّ جداً تأثير العقل الحيّ، فإنه يجب بحث المتناقضات، وهي بالتأكيد لا تنقص القرآن. إن التنافر والتناقض يتعارضان مع فكرة الوحي الإلهي، رغم أنه يمكن أن أمراً وضعياً قد حُذف أو عُدل. وعندما يكون هناك آيتان متعارضتان، فإن المفسرين يرون بأنّ الأقدم منسوخة بالمتأخرة، وفق النص: ﴿مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾.

بينما مكونات كل سورة مختلفة بسبب ذلك في السياق، إن كان فيما يخص الزمن أو الموضوع، فإن السور تتوالى الواحدة تلو الأخرى بدون قاعدة مهما كانت، باستثناء الطول؛ حيث وُضعت الأطول في البدء، ثم الأقصر، وهكذا إلى أن يُختم الكتاب بأقصر السور. وبما أن السور الأقصر، حسب القاعدة، تعود إلى الحقبة الباكّة من رسالة مُحَمَّد، والأطول إلى الحقبة المتأخرة، فإنّ الترتيب هو عكس مباشر للنظام الطبيعيّ، لدرجة أن القارئ، الذي سيأثر من نهاية القرآن، ويقرؤه بالعكس نحو البداية، فإنه سيحصل على تصوّر أكثر دقة للتعاليم التي بدأ بها مُحَمَّد نبوته، وكذلك الأطوار التي كان يرتقيها الإسلام نحو تطوره الكامل، أكثر ممّا لو شرع به من الصفحة الأولى.

إن أي محاولة لترتيب السور في نظام تاريخي دقيق هو في أحسن الأحوال تقريبيّ؛ إلا أن ثمة معالم، ستركز عليها بعض المحدّدات. الأولى، الجموح والعاطفيّة في العهد الأوّل، الشريّة والقصصيّة في الثاني، السلطويّة والأمرّة في

الأخير. وفيما بعد يُلاحظ تطوُّر المذهب والقانون؛ والإدلاء بالحجَّة، بغضِّ النظر إن كانت موجهة لوثنيَّة مكَّة أو لليهود أو المسيحيين؛ أو إلى أهالي يثرب الناقمين؛ أو إلى المؤمنين المظلومين المضطَّهدين، أو إلى نفس المؤمنين المقاتلين والمتصرين. وفي النهاية، ثمة إشارات واضحة إلى معالم تاريخيَّة، فيها معطيات معيَّنة، تعيَّن زمن النظم. في الجانب الآخر، فإنَّ جزءاً كبيراً - لا سيما جميع السُّور الطويلة - مكوَّنة من أجزاء تعود إلى عهود مختلفة من حياة النَّبيِّ، وغالباً ما يحدث بأنَّ السُّور ذات هذا الطراز من الإنشاء لا يمكن عزوها بالكامل إلى أيِّ عهدٍ محدَّد؛ وهذا الأمر ينطبق حتَّى على السُّور التي تُصنَّف بحقُّ أنَّها سورٌ مدنيَّة، فكثيراً ما نصادف فيها آيات تعود إلى عهد بعيداً جدّاً في مكَّة، والعكس بالعكس. كذلك سيكون مفهوماً أنَّ هناك أجزاء كثيرة من القرآن، ليس لها أيُّ سمات فعليَّة، ولا يمكن عزوها إلى عهد محدَّد لغياب أسس كافية لذلك، وبالتالي، يبقى الترتيب حسب افتراض كيفيٍّ محض.

في الصَّفحات التَّالية، فإنَّ السُّور التي تبلغ من العدد (114) رُتبت حسب أفضل حكمي؛ وبينما يمكن أن يكون الترتيب العامُّ مقبولاً بوصفه بُنيَّ على أسس كافية، فإنَّه من الملاحظات السابقة بالوسع استنتاج أنَّ - مع بعض الاستثناءات لعهود محدَّدة - مساحةٌ معتبرةٌ يتوجَّب إفرادها لتعيين مكان السُّور المنفردة.

الترتيب التاريخي التقريبي للسور

العهد الأول: ثماني عشرة سورة:

103، 100، 99، 91، 106، 1، 101، 95، 102، 104، 82، 92، 95، 89، 90، 93، 94، 108. وهذه هي جميع السور الحماسية، وبعضها مؤلف من سطر أو اثنين. وربما قد نُظمت قبل أن يكون لدى مُحَمَّدٍ تصوُّرٌ عن الرسالة الإلهية، أو نزول الوحي إليه مباشرةً من السماء، وليس لأيٍّ منها صيغة رسالة من الإله.

العهد الثاني: استهلال نبوة مُحَمَّدٍ:

السورة 96 [العلق]. تتضمن الأمر: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»⁽¹⁾، وحسب الأحاديث فإنها كانت السورة الأولى نزولاً، بعد انقضاء الفترة التي كان فيها الوحي متوقفاً.

السورة 113 [الفلق]. وهي مكونة من خمس آيات قصار تتعلق بوحدة وأزلية الإله. وليس فيها ما يشير إلى زمنها الدقيق؛ لكنها تبتدئ بقول: «قُلْ»، ولهذا فإنها يجب أن تكون بعدما افترض مُحَمَّدٌ أنه ملهم مباشرةً من الله. ويروى أنه كان يقرأ السورة قبل أن يأوي إلى فراشه.

السورة 74 [الإنسان]. وهي تستفتح بالأمر أن ينذر، وتتابع بإدانة مرّة لأحد

(1) سُورَةُ الْعَلَقِ: 96/1.

زعماء مَكَّة الذي كان يسخر من البعث. وفيها أنذر الكافرون بعذاب النار.

السورة 111 [المسد]. سورة قصيرة، حيث لُعن فيها كل من أبي لهب، عم النبي، وزوجته في لغة نارية ومُرّة.

العهد الثالث: من بدء نبوة مُحَمَّد العائنة إلى الهجرة للحبشة.

السورة: 87؛ 97؛ 88؛ 80؛ 81؛ 84؛ 86؛ 110؛ 85؛ 83؛ 78؛ 77؛ 76؛ 75؛ 70؛ 109؛ 107؛ 55؛ 56. إن هذه السور نُظمت بشكل رئيس لتصوير البعث، والجنة، والنار، مع الإشارات إلى معارضة قُرَيْش المتصاعدة.

العهد الرابع: من السنة السادسة إلى السنة العاشرة من نبوة مُحَمَّد.

السورة: 67؛ 53؛ 32؛ 39؛ 73؛ 79؛ 54؛ 34؛ 31؛ 69؛ 68؛ 41؛ 71؛ 52؛ 50؛ 45؛ 44؛ 37؛ 30؛ 26؛ 15؛ 51. في هذا العهد بدأت ترد القصص من الكتب اليهودية، والحبرية، كما من الأساطير العربية. والتسوية المؤقتة مع الوثنية مرتبطة بالسورة 53 [النجم].

العهد الخامس: من السنة العاشرة لنبوة مُحَمَّد (في فترة إزالة المقاطعة عن المسلمين) إلى الهجرة من مَكَّة.

السور: 46؛ 72؛ 35؛ 36؛ 19؛ 18؛ 27؛ 42؛ 40؛ 38؛ 25؛ 20؛ 43؛ 12؛ 11؛ 10؛ 14؛ 6؛ 64؛ 28؛ 23؛ 22؛ 21؛ 17؛ 16؛ 13؛ 29؛ 7؛ 113؛ 114. (إن السورتين الأخيرتين غامضتان). وتحتوي سور هذه الحقبة على بعض القصص الإنجيلية. وقد فُرِضت طقوس الحج. وفُتدت اعتراضات قُرَيْش. ولدينا صور حيّة للبعث وليوم الدينونة، والجنة والنار، وإبراهيم وحدانيته وسلطة وتدبير الله.

تصبح السورة من حقبة إلى أخرى - في المعدل - أكثر طولاً، وبعضها

يشغل الآن صفحات عديدة. في السور المتأخرة لهذه المرحلة نجد - وليس بالنادر - آيات مدنيّة، أقحمت لكونها تتصل ببعض المواضيع. وكمثال يمكننا أخذ الآية (39) من السورة (22) [الحج] التي أعطي فيها الإذن لحمل السلاح ضد المكيّين؛ والآية (33) في السورة (17) [الإسراء] التي تحتوي على القواعد لإدارة العدل؛ والآية (110) في السورة (16) [النحل] التي تشير إلى المؤمنين الذين هاجروا وقاتلوا من أجل الإيمان؛ إنّ هذه الآيات لا يمكن أن تُعلن إلّا بعد الهجرة إلى يثرب.

المهد الأخير: السور المنزلة في يثرب.

السورة 98 [البقرة]. سورة قصيرة من ثماني آيات، وتتعلّق باليهود والمسيحيّين الأخيار والسيّئين. وليس هناك ما يحدّد تاريخها بدقة.

السورة 2 [البقرة]. وهي السورة الأطول في القرآن إلى حدّ بعيد، واسمها جاء من البقرة الصغيرة الحمراء الموصوفة في الآية (67) التي ضحّي بها من قبل الإسرائيليين نزولاً عند أمر موسى. والسورة كانت مُسمّاة كذلك في عهد مُحَمّد، فكما رأينا من قبل فإنّها ذُكرت في معركة حُنين. وفي هذه السورة جُمعت آيات تناولت مواضيع مختلفة، والتي نزلت خلال السنتين أو الثلاث بعد الهجرة. إنّ القسم الأعظم يتعلّق باليهود، الذين كانوا في بعض الأحيان يُحذّرون بعبارات وديّة (وهي في الآيات الأولى)، وفي أوقات أخرى كانوا يُشجّبون. وهي مليئة بالقصص الكتابيّة والحبريّة؛ ولدنيا الأمر بتغيير القبلة، وإدانة البشريّين الخارجين، والوصايا بالقتال، والإذن بحمل السلاح في الأشهر الحرم. ونجد فيها أيضاً ما يشير إلى السّمة التشريعيّة التي أعلنت لدى بلوغ يثرب لأول مرة، مع آيات مقحمة تتصل بهذه الشأن أيضاً، بيد أنّها من زمن متأخّر.

السورة 3 [آل عمران]. وهي أيضاً ذات طول كبير. وجزء منها يعود رأساً عقب معركة بدر (2 هـ)، والتي وصفت فيها. والجزء الآخر، والأطول يتعلق بهزيمة أخيد (3 هـ)؛ كما أشير إلى حملة بدر الثانية (4 هـ). وورد ذكر اليهود في إسهاب كبير، وبعبارات عدائية قاسية. ويعود الحوار مع وفد مسيحي نجران (الآيات 59 - 66) إلى حقبة أكثر تأخراً. وفي الختام ثمة بعض الآيات تتعلق بحجة الوداع (10 هـ)، وهي ترد بالارتباط مع آيات أخرى (على الأرجح) لنصوص أبكر حول شعائر الحج.

السورة 8 [الأنفال]. تحتوي على أوامر تقسيم الغنائم المستولى عليها في بدر، وهي في جزئها الأكبر تعود لهذه الحقبة. وبعض الأجزاء ذات أسلوب مكّي قديم، ويشار إلى قرش بشكل متكرر.

السورة 47 [محمّد]. فرضت فيها الحرب والذبح بحماسة، وفيها هُدد وثنيو مكة.

السورة 62 [الجمعة]. سورة قصيرة أدين فيها اليهود لضلالهم. وأمر أن تأخذ صلاة الجمعة الأسبقية على الشؤون الدنيوية.

السورة 5 [المائدة]. سورة طويلة، تُنظم جزؤها الأكبر شتماً لليهود. كما أن عقائد المسيحيين مفنّدة، رغم أنه يتحدث عنهم بلطافة (الآية 82). والآية الافتتاحية التي تفرض شعائر الحج من تاريخ لاحق؛ وربما يختص جزء برحلة الحديبية (6 هـ)؛ إلا أن جزءاً يعود إلى حجة الوداع، حيث ترد فيه الآية (3): ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ ولدينا كذلك العديد من الأوامر المدنية، مثل قانون الميراث، وتعاليم مختلفة.

السورة 59 [الحشر]. ليس بذات طول، وتروي حصار وترحيل بني النضير (4 هـ).

السورة 4 [النساء]. وهي مسمّاة من الجزء الأكبر الذي خُصّص لكيفية معاملة الزوجات، والعلاقات بين الجنسين. وثمة أيضاً أوامر حول قانون الميراث، والقوانين العامة، الاجتماعية والسياسية. كما رُفِضَت المودة مع وثني مكّة بإصرار. وفيها فوق ذلك انتقادات معادية ضد اليهود.

السورة 58 [المجادلة]. سورة قصيرة حول الطلاق ومسائل اجتماعية أخرى. وقد ويخ النّاقمين البشريين لأنهم يودون اليهود.

السورة 65 [الطلاق]. نصّ قصير للغاية حول الطلاق، ومواضيع مرتبطة ببعض النصائح الدينية.

السورة 63 [المُنَافِقُونَ]. نص قصير يتضمن تهديدات إلى عبد الله بن أبي سبب لغته الفجة أثناء الحملة ضد بني المُصْطَلِق (5هـ).

السورة 24 [النور]. تحتوي على براءة عائشة فيما يتصل بالإفك (5هـ)، مع قانون زواج الكافرين، ومختلف الوصايا الاجتماعية والدينية.

السورة 33 [الأحزاب]. مكوّنة من عدة أجزاء نزلت على مدار سنة (5هـ). والآيات الأقدم تصادق على زواج النبيّ من زينب، التي كانت زوجة ابنه بالتبني، وهو الحدث الذي جرى قبل حملة ضد بني المُصْطَلِق بما يقارب نصف السنة؛ وثمة آيات مختلفة حول علاقات مُحَمَّد الزوجية. والبقية مكرّسة لحصار يثرب، وسقوط بني قُرَيْظَة، الوقائع التي جرت بعد أربعة أشهر تقريباً على الحملة أعلاه.

السورة 57 [الحديد] تتضمن أوامر حماسية للقتال والمساهمة في الإنفاق في تكاليف الحرب، وذلك للحصول على حصة خاصة بالانضمام إلى القضية قبل أن يعلن النصر بشكل نهائي. وقد حُدِّر السّاخطون، وذُكر المَسِيحِيُّون

بعبارات ودية.

السورة 61 [الصّف]. سورة قصيرة، ومثل السابقة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ⁽¹⁾﴾. إن نصرأ سريعاً وعد به هنا.

بقية السور تعود على وجه الحصر إلى السنوات الخمس الأخيرة من حياة النبي.

السورة 48 [الفَتْح]. تشير إلى هدنة الحُدَيْبِيَّة (6 هـ)، وبشير النصر والحصول على الغنائم في مكان آخر (أنجز بعد فترة قصيرة في خير).

السورة 60 [المُمْتَحِنَة]. سورة قصيرة، تتصل بشكل أساسي بطريقة التعاطي مع النساء اللواتي، أتين من مكة بعد الهدنة. وفيها حذر المؤمنون من عقد صداقات مع وثنيي مكة.

السورة 66 [التَّحْرِيم]. سورة قصيرة نزلت بشأن فضيحة مُحَمَّد وجارية قبطية (7 أو 8 هـ).

السورة 49 [الحُجُرَات]. سورة قصير أخرى، تنهم إعلان البدو الإيمان أنه غير مخلص، ووبخ الوفد الذي صرخ عالياً لدى باب مُحَمَّد، وهي تحذر المؤمنين من الرية وعدم التساهل فيما بينهم.

السورة 9 [التَّوْبَة]. السورة الأخيرة، وهي طويلة نسبياً. وتعالج حملة تبوك (9 هـ). وتفتح السورة بـ «براءة» التي أعلنت في موسم الحج في هذه السنة، وتواصل معلنة عداة الإسلام للأديان الأخرى، وفيها منع الجميع، ما خلا المسلمين، من دخول مكة، وأداء شعائر الحج. وتنزل فيها ذبح واسترقاق الوثنيين؛ وأمر بالحرب ضد اليهود والمسيحيين، لحين دفع الجزية وهم

(1) سُورَةُ الصّف: 61/4.

صاغرون. وهي تسمى سورة الجهاد، وكانت السورة في زمن الخلافة المبكرة تُتلى في الساحات قبيل المعركة.

لم تكن الآيات في السور مرقمة؛ ولا السور نفسها أيضاً، ولم تكن معروفة بين المسلمين من خلال تعاقبها الزمني، بيد أن (مثل الكتاب المقدس) كل سورة تُعرف باسم مستقل أو عنوان متزع من موضوعها الرئيس أو عبارة واردة فيها، مثل سُورَةُ يُوسُفَ، والكهف، والإشراء. وتبتدئ كل سورة بالبسملة - وهي «بسم الله الرحمن الرحيم»⁽¹⁾ والقرآن مُقسَّم للسهولة إلى ثلاثين جزءاً (حزباً)؛ وعلى هذا فبالوسع قراءة القرآن أجزاءً على مدار الشهر (مثل المزامير).

إنَّ توقيرَ المسلمين العاطفيِّ لِلْقُرْآنِ يجعلهم يشعرون بكره خرافي لطباعته وبيعه ككتاب عام. كما ثمة معارضة مسيطرة لتدنيس النص المقدس، وذلك بتعريضه لخطر تصوير خاطئ عبر ترجمته إلى لغات أخرى. إنَّ هذه الوسواس تقف وراء النقصان، والنسخ المطبوعة، مع نسخ ذات سطور موازية من الفارسية والأردو، وهي الآن متداولة على نطاق عام في الهند. بيد أن الترجمات حرفية للغاية بحيث أنها غير مفهومة، ووفاءً خانع لترجمة حرفية، كالعادة، عمل كسول أكثر من محاولة لتقديم المعنى والروح في ترجمة حرة.

(1) إنَّ السورة التاسعة [التوبة] استثناء وحيد؛ فليس فيها البسملة، وبعضهم يرى أنه كان يُراد أن تكون استمراراً للسورة الثامنة [الأنفال]. إنَّ البسملة (التي يمكن أن تكون قد أخذت من صيغة مسيحية مشابهة، أو من صيغة فارسية قديمة)، كما العنوان يقيان على العموم في نسخ القرآن، لكن بدون أساس مفهوم يجعلهما جزءاً من الأصل الإلهي. وثمة اختلافات في العنوان حسب مختلف الطبعات. إنَّ الرقم الكلي للآيات التي تحتويها كل سورة (تختلف بشكل طفيف) غالباً ما يُوضع بعد العنوان.

إنَّ ترجمةَ سِيل، المطبوعة سنة (1734)، هي النسخة الإنجليزية القياسية. رغم أنَّها تفسيرية، ولربَّما لدرجة الإفراط، إلَّا أنَّها تستحقُّ تقديرنا، وليس فقط لالتزامها، بل لنقلها الرائع لروح الأصل إلى لسان أجنبي.⁽¹⁾

(1) إنَّ صياغةَ سِيل تقدِّم المعنى بالعموم حسب شرح المفسِّرين. وعلى أيِّ حال يجد الطلاب أنَّ الأصل قابل لترجمة مختلفة. ويجب الرجوع إلى المفسِّرين القياسيين: البَيْضاوي، الزمخشري، والجلالين، حيث أنَّهم يقدِّمون الرؤية الإسلامية، رغم أنَّه لا يسعُ المرء دائماً الموافقة على تفاسيرهم. إنَّ مقدمة سِيل العلمية يجب أن تُدرس بعناية من جانب كلِّ من يريد أن يتبع تطوُّر الإسلام، وتعاليم علماء اللاهوت ومختلف المدارس اللاهوتية بشأن القرآن.

الفصل الثالث

تعاليم القرآن

إن علماء اللاهوت المسلمين حملوا مُحَمَّدًا الكثير ممَّا ليس مسؤولاً عنه. مفترضين أنَّ القرآنَ نطقُ العليمِ بكلِّ شيءٍ، وبالتالي، ملائمٌ بشكلٍ مطلقٍ للحقيقة الأبدية، وسعوا للتوفيق بين تناقضاته، وإلى ملء فجواته بقياس التمثيل، أو بالحديث المزعوم عن النبيِّ، وعلى هذا فإنَّهم طَوَّروا منظومات كاملة من اللاهوت والأخلاق، المنسوبة إمَّا مباشرةً إلى مُحَمَّد، أو أنَّها تبدو استنتاجات شرعية من تعاليمه. في هذه السيرورة فإنَّ العقائد اليهودية والمجوسية (والتي كان يدين بها مُحَمَّدٌ لبعض المدى) تبنَّاها أتباعه بحماس بعد وفاته، واستوعبت ضمن ما يناسبها في مواد الإسلام؛ وعلى هذا، فإنَّ الإيمان الشعبي أدمج بسهولة القصَّة الحبرية والموروث على أنَّه متأت من النبيِّ نفسه. ومع مرور الزمن فإنَّ الفلسفة اليونانية، كما دُرست في بلاط الخلفاء، جُعِلت على صلة بالقرآن. وإذ تبنَّى الفلاسفة العرب منهاجها في التفكير، فإنَّهم أدخلوا في الإسلام البحوث الميتافيزيقية والمسائل المعقَّدة، الغريبة تماماً على عقيدة مُحَمَّد البسيطة، زاعمين أنَّ لها مرجعية في القرآن. وعلى قدر ما كان أساس هذه الاستدلالات ضعيفاً وملتبساً، فإنَّ الاختلافات كانت واسعة بين المدارس والفِرَق، وإنَّ الانفعال والحلَّة التي نُوقشت فيها المسائل؛ والتزاع كان يؤدِّي غالباً إلى اضطهاد وحشيٍّ، وإلى دخول في معارك

دموية. لا سيما هذه الآراء المتصلة بحق الوراثة الإلهية للخلافة؛ وأزلية القرآن، أو خلقه، والجبر أو حرية الاختيار؛ واستحالة رؤية الله، أو الرؤيا السارة كما عرضها أصحاب التشبيه.

إن كنا ستقوم بدراسة القرآن، متوقعين أن نجد فيه أمثال هذه العقائد، أو أي منظومة عقائدية متسقة فإننا سنضل السبيل. إن القرآن مرآة قناعات مُحَمَّدٍ الخاصة، أو بالأحرى التعاليم التي رغب بفهرسها في أذهان الآخرين. إن أفكاره تغيرت - كما رأينا - بصدد مسائل عدة مهمة خلال تطور نبوته. إن وحي القرآن نزل من خلال أحداث اللحظة العابرة، ومنها أخذ صيغته ولونه، وعلينا بالتالي أن نتقبل بياناته المختلفة كما نجدتها بالضبط، وستوه في شعاب الضياع لو سعينا إلى وضعها في أي شكل متناسق أو منهجي.

في الواقع إن بعض المبادئ، مغروسة على طول القرآن بدون تغيير أو بعدم تناسق. مثل وحدانية الله، وجلاله، وشمولية العناية الإلهية؛ وجود الملائكة الأخيار، كما وجود الشيطان والملائكة الساقطين؛ خلود الروح؛ البعث وجزاء الأخيار والأشرار؛ خطيئة الوثنية؛ إلهام مُحَمَّدٍ نفسه، والأنبياء السابقين. ومن جهة أخرى، بالإمكان تحديد مبادئ أخرى من خلال بيانات معارضة، مثل القدر، الخلاص بدون أعمال، ومكافأة الأعمال الطيبة.

إن تعاليم القرآن بسيطة للغاية. فالله كشف عن نفسه في مختلف العهود، من خلال مختلف الشرائع، بواسطة الأنبياء الملهمين. والشرائع اختلفت في المظهر والشكل العرضي؛ بيد أن الإيمان العام العظيم في وحدانية الله والإسلام (الذي يعني الخضوع لإرادته)، يشكل الأساس لها جميعاً. إن الحقيقة التي أعلنت على التوالي غالباً ما ضاعت أو تشوهت من الجهل أو ضلال البشر. إن رسالة مُحَمَّدٍ كانت في تأسيس آخر هذه الشرائع؛ وبينما كان يعلن في البدء أن تعاليمه الخاصة هي ببساطة متفقة مع الرسائل السابقة، فإنه

في الختام جاهد إلى أن يزيلها ويتجاوزها جميعاً.

إنَّ شرط الإسلام الأول هو الإيمان بعقيدة: «لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله». إنَّ هذه تمحو الوثنيَّة، وإشراك مع الله، مواضيع العبادة الأخرى؛ وتبَّت القرآن كقاعدة ذات مرجعيَّة عليا للإيمان والممارسة. ليس ثمة في الإسلام كهنوت. فالإنسان يتعامل مباشرة مع الإله. وليس مُحَمَّدٌ إلَّا نبيًّا، وهو نفسه خاطئ يحتاج للرحمة والغفران.⁽¹⁾ ويُوعد المؤمنون بالخلاص، لكنَّ عليهم الالتزام بالامتناع عن فعل الشرِّ، والقيام بالأعمال الطيِّبة، وبالتحديد عليهم التقيُّد بأوامر الإسلام. إنَّ هذه الشروط، رغم قلَّتْها وبساطتها، فإنَّها تتخلَّل جميع مناحي حياة المسلمين. إذ يُستهلُّ النهار بالصلاة لدى الفجر؛ وينتهي بالصلاة؛ وإضافة لذلك فإنَّ هذا الطقس يتكرَّر ثلاث مرَّات أخرى في اليوم، وفي فترات زمنيَّة محدَّدة خلال اليوم. وتتألَّف كلُّ صلاة من سجديَّين أو أكثر، مصحوبة بهتاف الصلاة وتلاوة آيات قصار من القرآن. كما ثمة الزكاة، أو الصدقات؛ والصيام خلال شهر كامل في رَمَضَانَ (والذي رغم قسوته من الفجر إلى غروب الشمس، يُسمح فيه باسترخاء كامل ليلاً)؛ والحجُّ إلى مكَّة، الذي ليس مرهقاً للعرب الذين فرض عليهم في البدء، وهو، بدون شك، غير ملائم للاتباع من كلِّ الأجناس.⁽²⁾

إنَّ مصير الإنسان، ومهما حصل من أمر كبير أو صغير، بُتَّ بأحكام القرآن

(1) سُورَةُ مُحَمَّدٍ: 47/19.

(2) إنَّ المساحة المخصَّصة لي لا تسمح بتفاصيل إضافيَّة أو تأثُّل يتعلَّق بأوامر الإسلام؛ بيد أنَّ هذا أقلُّ ما يُؤسِّف له، ذلك أنَّ عمل ت. ب. هوغويس (T. P. Hughes)، الرائع: «Notes on Muhammedanism»، لندن، لا يترك شيئاً يمكن للمرء أن يرغب بإضافته بصدد الموضوع. والصادر: London: W. H. Allen & Condy.

الحنمية والمؤكدة بشكل تام فيه. ومن البين أن هذا المبدأ لعب دوراً أساساً للتسليم والصبر على المحن، والأثران بالنجاح، والسكينة في الخطر؛ بيد أنه ليس محصوراً في مثل هذه الغايات البرية والشرعية. إن العقيدة تبرز للعيان دائماً في شكلها الأكثر صراحة وعدوانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾⁽¹⁾؛ و﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾⁽²⁾؛ و﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ﴾⁽³⁾؛ وهلم جرا.⁽⁴⁾ لكن بينما لا توجد نزعة معاكسة بشكل واضح في القرآن، فإن ثمة الكثير مما يشي عن حرية الإرادة ضمناً. إن الصلاة مفروضة دائماً. وقد كان مُحَمَّدٌ يؤدِّيها أيضاً، وغالباً ما تنسب الحرية إلى أثرها.⁽⁵⁾ وحُضُّ الإنسان دائماً على القيام بالأعمال الصالحة. وحُذِر من الكفر والخطيئة، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾⁽⁶⁾. في الواقع، إن الخلاص يتصل بالإيمان، والإيمان يتعلق بإرادة الله؛ وعلاوة

(1) [سُورَةُ فَاطِرٍ: 35 / 8، م.]

(2) [سورة التين: 95 / 4-5، م.]

(3) [سورة الإسراء: 17 / 13، م.]

(4) إن مثل هذه الآيات ترد على طول القرآن. انظر: سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 6 / 123، 125، 137؛ سُورَةُ الْأَعْرَابِ: 7 / 178، 186؛ سُورَةُ يُوسُفَ: 10 / 99؛ سُورَةُ هُودٍ: 11 / 118؛ سُورَةُ الرُّعْدِ: 13 / 27، 33؛ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: 14 / 21؛ سُورَةُ النَّحْلِ: 16 / 36، 93؛ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 17 / 13؛ سُورَةُ الْكَهْفِ: 18 / 17؛ سُورَةُ السَّجْدَةِ: 32 / 13؛ سُورَةُ الْإِنْسَانِ: 76 / 30؛ سُورَةُ التَّكْوِينِ: 81 / 29؛ سُورَةُ الشُّنْسِي: 91 / 7-8؛ سورة التين: 95 / 4-5.

(5) مع رفع الحصار عن يثرب، ("Life of Mahomet," P. 325)، انظر كذلك سُورَةُ الرُّومِ (31 / 32). حيث غالباً ما يقدم وصفاً للبحارة وفق طراز العزائمير (107): «ثم استفتاوا بالرب في ضيقهم، فأنقذهم من مصائبهم».

(6) [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2 / 195، م.]

على ذلك لا تنقص الآيات التي تتحدث عن الإنسان الذي يختار بين الخطيئة أو الصواب، وتذكر الجنة والنار كعاقبة. ⁽¹⁾ ويؤمر المؤمنون مراراً بالحد من مكائيد الشيطان. وبالتالي، فإن الحكم بين الخير والشر مفهوم ضمناً في آيات قرآنية كثيرة، والجزاء يكون نتيجة لاختياره بين الخير والشر. إن الإنسان مسؤول عن خطيئته الخاصة وحسب. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ⁽²⁾ ولا

(1) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ؛ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ؛ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ... إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَن أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: 18-29-30). انظر كذلك: سُورَةُ يُونُسَ: 108/10؛ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 15/17؛ سُورَةُ الزُّمَرِ: 41/39، 54.

(2) إن هذا النص يتكرر عدة مرات - سورة الأنعام: 164/6؛ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: 15/17؛ سُورَةُ فَاطِمَةَ: 18/35؛ سُورَةُ الزُّمَرِ: 7/39؛ سُورَةُ النَّجْمِ: 38/53 - وتقريباً بنفس كلمات القدّيس بولس في غَلَاطِيَّة: 5/6. وهذا لكي يجعل هذه الآيات تتناغم مع الوعد بالجنة بوصفها مكافأة غير مشروطة لإيمان المؤمنين الصّرف. إن نظاماً من العقوبات الوسيطة لفقه علماء اللاهوت. فإن رجحت كثرة الأعمال الطيبة على الشريرة، فإن المؤمن يذهب رأساً إلى الجنة؛ وبخلاف ذلك فإن عليه أن يختبر عقوبة لبعض الوقت، ومن ثم يُرسل إلى الجنة. وبذلك، فإن الوعد بالجنة مضمون للمؤمن في خاتمة المطاف. وليس لدى الكافرين مثل هذا الأمل. إذ سيقون في عذاب ميثوس منه مع الشيطان وملأكته في الجحيم، وحسب العبارة المكررة كثيراً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. لكن القرآن لا يعرف المطهر؛ وأقوال مُحَمَّد (على سبيل المثال، مثل تلك على فراش موته، ص 501، "Life of Mahomet") ليس لها، حسب قناعتي، أي معنى. إن مذهب حالة العذاب الوسيط، نشأ في الحقيقة عن مسعى لجعل آيات القرآن عقيدة منظومية ومتساقفة.

[المطهر: عند الكاثوليك موطن بين الجنة والنار تتطهر فيه نفوس الأتقين من الذنوب التي لم يكفروا عنها في الحياة الدنيا، وذلك بعذاب محدود الأجل، تتقل بعده إلى الجنة. وينكره الأرثوذكس والبروتستانت، م.]

يقرّ القرآن في أي آية منه بالخطيئة الأصلية المتأثية من السقوط. صحيح أن آدم قد سقط، بأكله الثمرة المحرّمة، بيد أن سقوطه (كما كان يظهر) كان نتيجة لتزوع في طبيعته نحو الخطيئة، ولم يتسبّب بها. كل الناس ارتكبوا المعصية، بيد أن لكل نقيصته الخاصة، ويتصرّف باستقلاليّة، وليس حسب أيّ تحديد سابق.⁽¹⁾ وتحت تأثير هذه الاعتبارات، فإنّ بعضهم وصل لاستنتاج أن مُحمّداً كان مؤمناً بالقضاء بمعنى مخفّف، وأنّ البعض اختير لمعرفة الحقيقة، بينما الآخرون تركوا للظلام وبالتالي للكفر، وأنّ هذه النعمة توهب حينما يرى الله أن الإرادة تميل لما هو خير، وتُمسك عمّن يميل نحو الشر؛⁽²⁾ باختصار، بعيداً للغاية عن أن يكون قدرياً مطلقاً، فإنّ مُحمّداً كان أقرب إلى بلاغيوس منه إلى أوغسطين.⁽³⁾ بيد أن هذا الرأي يجب أن يُرفض بوصفه مفارقة قائمة على أساس غير كافٍ. ومن أجل إيصال القدر إلى خاتمته المنطقية فإنّ الإنسان يُخفّض إلى مجرد آلة، أداة بسيطة في يد الله. إنّ مُحمّداً توقف قبيل الاستنتاج، الذي كان سيسفّه كامل رسالته بوصفه نذيراً ومبشراً للدين الحق، ولم يلفظ

(1) إنّ الآيات بصدد الفساد الشامل للإنسان ليست كثيرة؛ بيد أن التالية جليّة: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ، مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَالِيَةٍ﴾ (سُورَةُ النَّحْلِ: 16 / 61). انظر كذلك سُورَةُ مُحَمَّدٍ (47 / 17)؛ سُورَةُ الْفَتْحِ (48 / 2)، بشأن مسؤوليّة مُحمّد الخاصة عن الخطيئة.

(2) ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا، لَأَسْمَعَهُمْ...﴾ (سُورَةُ الْأَنْفَالِ: 8 / 23). بيد أن الآيات التي من هذه النوع قليلة وغامضة. انظر: سُورَةُ الْمَائِدَةِ: 5 / 18؛ سُورَةُ الرُّعْدِ: 13 / 27؛ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: 14 / 22؛ سُورَةُ النَّحْلِ: 16 / 108؛ سُورَةُ مُحَمَّدٍ: 47 / 16.

(3) Dr. Weil's "Einleitung," 2nd edition, p. III.

بلاغيوس: راهب إنجليزي كان يرى أن الطفل يولد نقيّاً من الخطيئة الأصلية. وأما أوغسطين، فهو من أبرز آباء الكنيسة، وكان يقول بالقدر الذي كسب للبعض نعيماً في الآخرة وللبيض الآخر عذاباً سرمدياً في الجحيم، م.

تعليمه الصريح والمفرط للقدر الأعمى. إن إجراء مقارنة بين منظومته وبين المذهب المسيحي يعني مقارنة أشياء لا تملك فيما بينها إلا القليل. وأين، على سبيل المثال، سنجد في الكتاب المقدس كلمات تنطبق على هذه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ، لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً... وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ⁽¹⁾﴾. ومن جانب آخر، فإننا نبحت القرآن عبثاً من البداية إلى النهاية لإيجاد مثل هذا التصريح: «إن الرب لا يريد هلاك أحد»؛ أو «إنه سيعطي الخلاص لجميع الناس»؛ أو مجدداً «يقول الرب، ما دامت حياً فإن موت الشرير لا يسرنى، بل على الشرير أن يغير طريقه ويعيش».

وعندما قام الخليفة عمر برحلته إلى القدس للمشاركة في مراسم تسليمها، فإنه ألقى خطاباً، في طريق رحلته، أورد فيه هذا الاستشهاد من القرآن: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ، فَهُوَ الْمُهْتَدِ؛ وَمَنْ يُضِلُّ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً⁽²⁾﴾. فصرخ قس مسيحي، مقاطعاً الخليفة، من بين الجمع: «حاشا لله أ»، وهو يهز ثيابه علامة على معارضة غاضبة، «إن الله لا يضلُّ أحداً، بل بالأحرى يهدي الناس قاطبة». فاستفسر عمر عما يقوله هذا المسيحي «عدو الله». فأجيب: «إن الله لا يضلُّ أحداً». فاستأنف عمر خطابه، فاعترضه القس مجدداً لدى الكلمات البغيضة. مما أثار حفيظة عمر الذي قال: «بحق الله! إن أعادها مجدداً لأقطعن رأسه في هذا الموضع». فلاذ المسيحي بجدار الصمت، وأكمل عمر: «من يهديه الله،

(1) [سورة هود: 118 - 119، م.].

(2) يُصور الله يقول للشيطان الذي رفض السجود والصلاة لأتم، هذه الكلمات: سورة الأعراف: 7 / 18؛ سورة السجدة: 32 / 13؛ سورة الصافات: 37 / 85؛ سورة هود: 11 / 119؛ وتضليل الله للأشرار هو تحقيق مباشر لهذا التهديد.

(3) السور: سورة النساء: 4 / 88؛ 143؛ سورة الإسراء: 17 / 97؛ سورة الكهف: 18 /

فلا مصل له؛ ومن يضلّل الله، فلا هادي له. ⁽¹⁾ على أي حال، إن القصة تصوّر الرأي الشعبي. وليس ثمة من شك بأن مفهوم القضاء في صيغته الكاملة، هو الفكرة الطبيعية الناشئة عن تعاليم القرآن.

ليس ثمة من حاجة هنا لمناقشة فقرات القرآن التشريعية بأيّ تفصيل. من الطبيعي أن يكون القسم الأكبر متصلاً بالمواضيع التي استحوذت على اهتمام مُحَكِّدٍ وأتباعه. علاقة الجنسين، قانون الميراث، مع بعض الاستثناءات - مثل عقوبة قطع يد السارق - قانون المقابلة بالمثل الذي يضع السيف في يد ممثّل الضحية؛ الرجم عقوبة للزنى (الذي يستند إلى الحديث، وليست له مرجعية في القرآن نفسه)؛ وقبود عديدة في قانون الشهادة تثير الاعتراض. إن المدونة لا يمكن أن تخضع للبحث. إن منع الفائدة في الواقع، إذا ما كان مفروضاً بصراحة، فإنه يجب أن يعقّد أنشطة التجارة والمشاريع الوطنية. إن الحرية الشخصية انتهكت بحظر جميع ألعاب الحظ، وهذا ما فاقم قسوة وقتامة المجتمع الناتجين الآن عن عزل المرأة. وهذا ما يمكن قوله بشأن تحريم الخمر، وإضافة لذلك، وجود عقوبة الجلد على الشرب، وهي ليست موضع اعتراض، دغّ عنك أنها تلقى استحسان البعض.

إن أكثر التشريعات التي تُلحق أشدّ الضرر بخير الإسلام هي - بدون شك - تعدّد الزوجات، الطلاق، العبوديّة، وواجب محاربة غير المؤمنين. إن الحرب - حسب القرآن - يجب أن تُشنّ ضدّ الوثنيّة. إن القتل مصيرُ الرجال المحاربين، والاسترقاق نهاية النساء والأولاد. إن المسيحيّين واليهود عوملوا بشكل أكثر تساهلاً؛ لكن حتّى هؤلاء كان يجب محاربتهم، وقتلهم، واسترقاقهم، حتّى يدفعوا الجزية وهم صاغرون. ولهذا، فرغم منحهم امتياز

(1) «فروح الشام»، ص 226؛ وفتح سوريا، ص 261. كلكروتا؛ 1854. إن كلا المعلمين زائغان؛ بيد أنه بالإمكان قبول القصة على أنها تصوّر العقيدة المتحلّنة من القرآن.

الاعتراف بإيمانهم الموروث بشرط البقاء خاضعين، فإنَّ اليهود والمسيحيين أقصوا عن الهيئة السياسية؛ وفُرضت عليهم عدم الأهلية كي ترسم ملامح إذلالهم. وليس بالوسع إزالة الوصمة، إنها مشغولة بروح ومؤسسات الإسلام، وما دامت مستمرة، فإنَّها ستبقى سداً مرجئاً، وليس أمام الازدهار القومي فحسب، بل بوجه الدول الإسلامية التي تحتل موقعها في العالم المتحضر. إنَّ شروط الإذلال، كما أُعلنت في الوحي، هي بدون شك غامضة؛ لكنَّها حقيقة مع ذلك، وإنَّ أيَّ خطوة مأخوذة لإبطالها هي نسخٌ للأمر الإلهي.

وَيتمخض عن الحرب ضدَّ الكافرين بلاء العبودية، وهي - وإنَّ في صيغة معتدلة ومقيّدة - ليست بأقلَّ دماراً على السيّد المتغطرس، مثلما على الضحية البائسة. إنَّ الأرقاء رجالاً ونساءً، وغير مسلمين، ووثنيين، ويهوداً أو مسيحيين - يُنقلون مثل البضائع الأخرى، أو الأملاك المنقولة. وبصرف النظر عن زواجهات الشرعيّات الأربع، فإنَّه يُسمح للمؤمن في نصِّ القرآن - بتشجيع من مثال نبيّه، وبدون أيّ طقس أو شعيرة إضافية - أن يعاشر الأسيرات في الحرب، كما سراهنَّ وإهداهنَّ أو اقتناهنَّ بأيّ طريقة قانونيّة. وليس ثمة من تحديد، مهما كان، لعددهنَّ، ولا يوجد التزامات تتصل بالزواج. إنَّ السبايا يمكن أن يُغنَّ مجدداً في أيّ لحظة؛ إلّا إذا صادف وحملت من سيدها، فإنَّها تصبح (بمثال مُحَمَّد وماري القبطيّة) حرة. وما دام الإسلام قائماً، فإنَّ شقاء الإنسانية هذا سيقى إلى جانبه.

لقد كانَ من المُعتقد أنَّ مُحَمَّدًا، بتحسينه شروط العبوديّة، قد مهّد الطريق لزوالها.⁽¹⁾ وبالعكس، بينما كان يخفّف، فإنَّه كان يثبّت القيد بإحكام. فهو أمر بأن يُعامل الأرقاء برفق، بيد أنَّه ليس ثمة من واجب مهما كان يقع على المسلم يقضي بتحرير رقيقه؛ بل على العكس، فمن بين الوصايا التي جاءت في حجة

(1) Weil's "Einleitung" p. 130.

الْوَدَاعِ قَوْلُهُ:

«أَرْقَأَكُمْ أَرْقَأَكُمْ! أَطْعَمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ. وَإِنْ جَاؤُوا بِذَنْبٍ لَا تَرِيدُونَ أَنْ تَغْفِرُوهُ؛ فَيُعَاوِدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ، وَلَا تَعَذِّبُوهُمْ أَخْبِرْنَا هَاشِمًا»⁽¹⁾

ما دامت الحروب والغزوات مشتعلة، فَإِنَّ الْعَدَدَ الْكَبِيرَ مِنَ الْمُسْتَرْقَيْنِ لَنْ يَسْتَمِرَّ مِنْ خِلَالِ الذَّرِيَّةِ فَحَسَبَ وَسَرْمَدَةِ الْبَلَاءِ، بَلْ سَيَكُونُ ثَمَّةُ زِيَادَةٍ مُضْطَرَّةٍ فِي عِدَدِهِمْ. إِنَّ رُوحَ الْقُرْآنِ الْهَمَجِيَّةَ وَالْإِسْتِعْبَادِيَّةَ، وَإِنْ انْكَمَشَتْ أَمَامَ نَكِيرِ أَرْبَابِهَا، يَدُهَا لَمْ تَمُتْ. وَإِذَا تَرَكْنَا مَجْرِيَّاتِ الْحَرْبِ فِي الْخِلَافَةِ الْأُولَى،⁽²⁾ فَإِنَّ غَزَوَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي آيَامِنَا الْحَالِيَّةِ ضِدَّ سُودِ وَسْطِ آسِيَا وَالْقَبَائِلِ الْأَفْغَانِيَّةِ الْوُثْنِيَّةِ، وَحَتَّى حَزْبِ السُّنَّةِ فِي آسِيَا الْوَسْطَى ضِدَّ شِيعَةِ فَارَسَ، مَا زَالَتْ تَخْضَعُ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ؛ وَالتَّيْجَةُ (وَهِيَ الْهَدَفُ الْفَعْلِيُّ عَلَى الْأَغْلَبِ) إِضَافَةٌ جَدِيدَةٌ لِلْأَرْقَاءِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ. إِنَّ تِجَارَةَ الْأَرْقَاءِ الْإِفْرَاقَةَ غَيْرَ الْإِنْسَانِيَّةِ (رَغْمَ أَنَّ مُحَمَّداً نَفْسَهُ سَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَدِينُهَا بِدُونِ شَكٍّ بِتَفَاصِيلِهَا الْهَمَجِيَّةِ) تَتَلَقَّى الْمَصَادَقَةَ الْجَلِيَّةَ عَلَى شَرْعِيَّتِهَا مِنَ الْمَوْسَسَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْحَرْبِ الدِّينِيَّةِ. وَهِيَ نَفْسُهَا تَجْعَلُ الْحَرْبَ إِلْزَامِيَّةً، بَغْضٍ

(1) "Life of Mahomet," p. 486.

النَّصُّ جَاءَ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى» لِابْنِ سَعْدٍ، الْمَجْلَدِ الثَّانِي، م.

(2) لَقَدْ كَانَتْ أَسْرَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ تَرَاثَمَتْ فِي مَسِيرِهِمْ. وَبَعْدَ الْمَعْرَكَةِ الْكُبْرَى فِي الْقَادِسِيَّةِ، فَإِنَّ إِحْدَى النِّسَاءِ رَوَتْ: «شَهِدْنَا الْقَادِسِيَّةَ مَعَ سَعْدٍ مَعَ أَزْوَاجِنَا، فَلَمَّا أَتَيْنَا أَنْ قَدْ فُرِّغَ مِنَ النَّاسِ شَدَدْنَا عَلَيْنَا ثِيَابَنَا، وَأَخَذْنَا الْهَرَاوِيَّ، ثُمَّ أَتَيْنَا الْقَتْلَى، فَمَا كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَقِينَاهُ وَرَفَعْنَاهُ؛ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَجْهَزْنَا عَلَيْهِ وَتَبَعْنَا الصِّيَانَ نُؤَلِّهِمْ ذَلِكَ، وَنَصَرَفَهُمْ بِهِ»، الطَّبْرِي، م 3، ص 73. [الرَّوَايَةُ عَلَى لِسَانِ امْرَأَةٍ هَمَامِ بْنِ الْحَارِثِ النَّخَعِيِّ، رَاجِعْ تَارِيخَ الطَّبْرِيِّ، حَوَادِثُ سَنَةِ 14 هـ. م.]

النظر إن كان ثمة فرصة للنجاح ضدَّ اليهود والمسيحيين الذين لا يرتبطون بمعاهدة مع المسلمين؛⁽¹⁾ ولا يجب على سلطة مَسيحيَّة حتَّى الآن نسيان وصية سيدها بشأن إخماد تابعيها المسلمين، أو إشهار السيف فيما يُسمى الحرب المَسيحيَّة، فإنَّ جميع شروط الجهاد، بما في ذلك القتل، والجزية، والعبودية، ستكون مسوَّغة مجدداً بالقرآن.

إنَّ تعدُّد الزوجات مع المؤسَّسة الهرميَّة للتسرِّي العبودي، لهو آفة في جذر الإسلام، وسرُّ نفْسُحه. إذ أنَّ نقاءً وفضيلة رابطة الأسرة ممسوسة؛ وقوَّة ونشاط الطبقات المسيطرة مستنزفة؛ والهيئة السياسيَّة تصبح ضعيفة وواهنة، ما عدا انشغالها بالتأمر، وغالباً ما تنفَت الدولة نفسها إلى أجزاء، وتغدو ضحيَّة انعدام الثقة، والصراع على تسلُّم السلطة. إنَّ الذرَّة الرقيقة من مولاها وسيدها الخاصَّ تُعتبر شرعيَّة، وعلى هذا فهي تشارك في الميراث؛ بيد أنَّ هذه القاعدة، ورغم أنَّها جديرة بالثناء بحدِّ ذاتها، فإنَّها تمنح أرضيَّة إضافيَّة فحسب لتقسيم الملكيَّة. وإلى جميع هذه يجب أن يُضاف، بشأن الزوجات، أنَّ السهولة المهلكة للطلاق والزواج مجدداً، حتَّى لو لم يُوضع موضع التنفيذ دائماً، يمارس تأثيراً كامناً لإضعاف عرى الزواج، ويخفِّض من وزن المرأة في كفَّة الميزان الاجتماعيِّ.

وقد يبدو أمراً قليل الأهميَّة، بالمقارنة مع هذه الشرور العظيمة، ذكر «الحجاب»؛ بيد أنَّه في الواقع ليس كذلك. إنَّ الأمر الإلهيِّ، مع القيود المماثلة بخصوص العلاقة العائليَّة، وتعرُّض المرأة للتأديب، والكتب،⁽²⁾ لا يمكن إلَّا أن تمارس تأثيراً قاسياً وكنياً على الجنس نفسه.

(1) إنَّ التابعين المسلمين لسلطة مَسيحيَّة (مثل الهند) يقعون تحت عهد الالتزام بالولاء نحو الدولة التي تحميهم، ما داموا يمتنعون بحريَّة ممارستهم لدينهم.

(2) "Life of Mahomet," p. 343.

سُورَةُ النِّسَاءِ (4): وَإِنَّ تَأْثِيرَهُ السَّامَّ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِرَمْتِهِ لَيْسَ أَقْلٌ وَضَوْحاً؛ إِذْ قَدْ أَبْعَدَ كُلَّ ضِيَاءِ الْمَرْأَةِ وَتَأْثِيرَهَا الْمَشْرِقِ وَالنَّاعِمِ مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَجَعَلَتْ حَيَاةَ الْمُسْلِمِ وَهْمِيَّةً وَنَكْدَةً، وَإِنَّ عَاقِبَتَهُ ثَابِتاً مَوْضِعاً أَمَامَ تَقَدُّمِ وَتَحَسُّنِ حَتَّى الرَّجُلِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْحِجَابَ، وَبَعْضَ دَرَجَاتِ الْعِزْلِ، كَانَتْ قَدْ صَدَرَتْ بِذِكَاةٍ مِنْ مُحَمَّدٍ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ بَدَوْنَهَا فَإِنَّ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ، وَالطَّلَاقَ، وَالتَّسَرُّيَّ الْعَبْدِيَّ كَانَتْ سَتَقُوضُ أَسْسُ الْمَجْتَمَعِ نَفْسُهَا؛ وَالسَّعْيُ لِلتَّخْلُصِ مِنْهَا سَوْفَ يَفَاقِمُ الشُّرُورَ الْمَوْجُودَةَ فَمَحْسَبٌ.

فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، إِنَّ مَقَارَنَةَ الْأَخْلَاقِ الْمَسِيحِيَّةِ مَعَ الْإِسْلَامِيَّةِ لَيْسَتْ خَالِيَةً مِنَ الصَّعُوبَةِ إِجْمَالاً؛ فَإِنَّ الْمُدَافِعَ الْمُسْلِمَ سَيُحَاجِّجُ بِمِثَالِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ الْيَهُودِيِّ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّهُ سَيُؤَكِّدُ عَلَى الشُّرُورِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَتْمِيَّةِ النَّاشِئَةِ بِالضَّرُورَةِ عَنْ أَحَادِيَّةِ الزَّوْاجِ. إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَشْجِبُ أَيَّ تَحَلُّلٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ بَيْنَ الْجَنْسَيْنِ بِأَشَدِّ الْعِبَارَاتِ قَسْوَةً، بَلْ أَيْضاً يَعْزِضُ الْأَثْمَ لِلْعُقُوبَةِ الْمَلَامَةِ. وَبِسَبَبِ الشُّرُوطِ الْمُتَّسِعَةِ وَالْعَرِيضَةِ لِلْغَايَةِ لِمَا هُوَ مَشْرُوعٌ، فَإِنَّ فَضِيلَةَ سَلْبِيَّةِ مُحَدَّدَةٍ (مِنَ الصَّعْبِ تَسْمِيَّتُهَا كَيْحِ النَّفْسِ أَوْ عَفَّةٍ) تَتَخَلَّلُ الْمَجْتَمَعُ الْمُحَمَّدِيُّ، بِالتَّنَاقُضِ مَعَ اللَّأَخْلَاقِيَّةِ الْغَرَاثِيَّةِ وَالْمَنْهَجِيَّةِ فِي أَجْزَاءٍ مَعْيَنَةٍ لِكُلِّ مَجْتَمَعٍ أَوْرُوبِيِّ، وَالَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُعْتَبَرَ مِنْ جَانِبِ الْمَسِيحِيِّينَ عَاراً وَفَوْضَى. عَلَى أَيِّ حَالٍ، فِي دَوْلَةِ مُحَمَّدِيَّةٍ عَلَى نَحْوِ صَرَفٍ،⁽¹⁾ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْتَوَى الْعَامُّ لِلشُّعُورِ الْأَخْلَاقِيِّ ضَعِيفاً، أَكْثَرَ مِمَّا يُعْرَفُ فِي الْأَعْمَاقِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْبَشَرِيَّةِ. إِنَّ «الشُّرُورَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ» وَالْإِسْرَافَ الْمُتَفَشِّينَ فِي الْبُلْدَانِ الْمَسِيحِيَّةِ هُمَا مِنْ أَقْوَى الْأَسْلِحَةِ فِي مَخْزَنِ الْإِسْلَامِ. وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ حَقٍّ، عَنْ

(1) إِنَّ الْمُلَاحَظَةَ تَنْطَبِقُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الصَّرَفِ. وَفِي الْمَدَنِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ذَاتِ التَّنَوُّعِ السَّكَّانِيِّ الْمُتَعَدِّدِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْمَلَلِ وَالْقَوْمِيَّاتِ، فَإِنَّ ثَمَّةَ الْكَثِيرِ مِنْ عَدَمِ الْأَخْلَاقِ الَّذِي لَيْسَ الْإِسْلَامُ مُسَوِّلاً عَنْهُ بِشَكْلِ مُبَاشَرٍ.

الأخلاقية الأعلى وتحضر أولئك الذين يتبعون وصايا الإنجيل، وعن انسجام وفضيلة أكثر صرامة، تربطان عرى الأسرة، وعن التسامي بالجنس. بيد أن ذلك عبثاً، إذ أن مثال مدتنا الكبرى، وغالباً ممثلينا في الخارج، يناقضون الحجة. ومع ذلك فإنها سليمة، ذلك أن الرذيلة والإسراف سوف يتضاءلان ويزولان، والأخلاقية الأعلى ستعمُّ كامل الجماعة، وهذا يتناسب مع ممارسة المسيحية لتأثيرها الشرعي، بينما في الإسلام فإن التأثيرات الفاسدة لتعدد الزوجات، الطلاق، والتسرّي ترسّخت في كلّ الأزمنة.

فُصارى القول، إن الاختلاف الأساس والأكثر قوّة بين النظامين يكمن في حياة مؤسسيهما. فالأول عاش حياة تضحية بالنفس؛ والآخر حياة متعة. أحدهما جذب شعبه بقوة الحبّ للتصالح مع الأب؛ والآخر فرض بقوة السلاح القانون الحتمي للحاكم الأعلى. أوّلهما قدّم حياته، بحيث أننا من خلال موته يمكننا حياة الحياة الأبدية - بيد أن المقابلة هنا لا تصحّ، وكذلك التوازي مع القوة الخلاقة الجديدة المتجددة للإيمان المسيحي.

إن الدكتور فايل، العالم والمؤرّخ التزيه لحياة النّبّي وخلفائه، وبعد أن قدّم وصفاً لمعالم مختلفة في صالح الإسلام، فإنه استأنف حكمه على النحو التالي:

«إننا حقاً لبعيدون عن محاولة وضع مؤسس الإسلام بهذه الاعتبارات جنباً إلى جنب مع مؤسس المسيحية؛ من وجهة نظرنا فإن الخلاف يكمن أقل في العقائد الخاصة لكل منهما من في الشخصية الفردية. لو كان تسنى لمدرسة المعتزلة تطوير نفسها بحرية كما البروتستانتية، لكان يمكن أن تشكّل من القرآن اللاهوت الذي كان سيلبي متطلبات العقل البشري تماماً مثل العقلانية المؤسسة على الإنجيل. إن أول ظهور في سماتها الحقيقية كانت في حياة محمّد في يثرب، وعلينا أن نقفني انحدار وسقوط الإسلام النهائي فيها، وليس

في تعاليمه الهرطوقية بصدد السقوط والخلاص، ورفضه للثالوث (كما كان يُعلّم في القرن السابع). لقد كان المسيح مخلصاً لتعاليمه، وصادق عليها بموته؛ أمّا مُحَمَّدٌ فَإِنَّهُ تَجَنَّبَ الْخَطَرَ الْمَحْدَقَ بِهِ، وَتَطَلَّعَ مِنْ خِلَالِ كُلِّ وَسِيلَةٍ - وَفِي الْخِتَامِ مِنْ خِلَالِ الْقُوَّةِ الْخَالِصَةِ - لِكَسْبِ سِيَادَتِهِ وَسِيَادَةِ دِيَانَتِهِ. وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، لَمْ يَكْتَفِ بِنَشْرِ دِينِهِ وَالْوَصَايَا الْأَخْلَاقِيَّةَ بِاسْمِ اللَّهِ، وَفِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ، رَغْمَ أَنَّ قَوَانِينَهُ الدِّنْيَوِيَّةَ وَأَوَامِرَهُ كَانَتْ تُعَامَلُ عَلَى أَنَّهَا صَادِرَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّهُ كَانَ مُضْطَرّاً مَرَاراً بِسَبَبِ مِنَ الظُّرُوفِ لِتَغْيِيرِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ السَّيْطَرَةُ عَلَى النَّفْسِ لِيَضَعَ نَفْسَهُ قَبْلَ الْآخَرِينَ تَحْتَ التَّزَامِهَا. وَكَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ زَعْمٌ بِأَنَّهُ وَسِيطٌ بَيْنَ اللَّهِ وَالْإِنْسَانِ فَحَسْبُ، وَلَآئِهِ لَا يُمْكِنُ اعْتِبَارُ أَوَامِرِهِ بِأَيِّ مَنَحَى نُمُودَجاً لِلْفَضِيلَةِ، لِهَذَا، فَإِنَّ وَحْيَهُ صَارَ حَرْفاً مَيْتاً، بِدُونِ قُوَّةٍ لِإِحْيَاءِ الرُّوحِ بِالْإِيَانَةِ الْحَقَّةِ. وَبِذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَبْدُو لَنَا، بِالْعَلَاقَةِ مَعَ الْإِنْجِيلِ، شَيْئاً مِنَ الْمَاضِي (anachronism) لَيْسَ نَتِيجَةً عَقَائِدِهِ الدَّاخِلِيَّةِ الْمُتَنَاقِضَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً بِشَكْلِ نَاقِصٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، بَلْ - مِثْلَ كُتُبِ مُوسَى - لِأَنَّهُ يَحْتَوِي عَلَى الْأَوَامِرِ غَيْرِ الْمُفِيدَةِ، أَوْ حَتَّى الْمَلَائِمَةِ لِلتَّطْبِيقِ، فِي كُلِّ الْبُلْدَانِ وَلِكُلِّ الْأَعْرَاقِ الْبَشَرِيَّةِ، كَمَا لَيْسَتْ مُنَاسِبَةً لِجَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ. وَبِوصْفِهِ مُصْلِحاً (كَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ فِي الْأَصْلِ)، وَكَانَ يَطْمَحُ لِأَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ)، فَإِنَّهُ أَهْلٌ لَاعْتِرَافِنَا وَإِعْجَابِنَا النَّامِينَ. عَرَبِيٌّ اسْتَطَاعَ كَشْفَ اللَّثَامِ عَنِ الْعُيُوبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ الْمَهْمِيتَيْنِ، وَلَيْسَ بِدُونِ الْمَخَاطَرَةِ بِحَيَاتِهِ، وَسَعَى إِلَى تَدْمِيرِ الشَّرْكِ، وَغَرَسَ فِي شَعْبِهِ مَذْهَبَ خُلُودِ الرُّوحِ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ مَكَانٍ إِلَى جَانِبِ الرِّجَالِ الْعِظَامِ فِي التَّارِيخِ فَحَسْبُ، بَلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ اسْمَ نَبِيٍّ. يَبْدُو أَنَّهُ سَرَعَانِ مَا كَفَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ مُتَسَامِحاً، وَسَرَعَانِ مَا سَعَى إِلَى حِيَازَةِ النُّصْرَةِ لِلْحَقِيقَةِ عِبْرَ وَسَائِلِ الْإِغْتِيَالِ السَّرِّيِّ وَالْحَرْبِ الصَّرِيحَةِ، وَقَدَّمَ بِاسْمِ اللَّهِ مَدُونَةً جَدِيدَةً لِقَانُونِ سِيَاسِيٍّ، طَقُوسِيٍّ، مَدْنِيٍّ، بُولِيسِيٍّ، وَقَانُونِ جَنَائِيٍّ،

وقد دمع نفسه وكلامه بختم الضعف والوهن البشريين⁽¹⁾.

إن هذه الاستنتاجات مبنية على مراجعة دقيقة للحقائق المرتبطة بنهوض الإسلام؛ ولو كان ممكناً التمييز بين المصلح والنجي، لكانت احتوت الكثير التي يمكن أن نتفق معها بدون تحفظ. لكن الأمر لم يكن كذلك، فبوصفه مصلحاً، فإن مُحَمَّداً، بالفعل، دفع شعبه إلى نقطة معينة؛ بيد أنه كنبي، تركهم مثبتين بدون حراك عند هذه النقطة لكل الأزمنة الآتية. وإذا لم يكن ثمة من عودة، فليس ثمة من تقدم. إن الشجرة هي زرع صناعي؛ وعوضاً عن أن تحتوي في داخلها بذرة النمو، والتكثيف مع المتطلبات المختلفة للزمن والبيئة والظروف، وتفتتح بأشعة الشمس الدافئة والمطر من السماء، فإنها تبقى نفسها ومعوقة عن النمو كما كانت قد غُرست في القرن السابع الميلادي.

إن الدكتور فايل، عن حق، يرى مستقبلاً ممكناً للإسلام بإتباع أثر اليهودية الإصلاحية، وذلك بالتخلي عن تلك الأجزاء من المنظومة، التي كانت ملائمة للعصر الماضي، والتي صارت الآن عتيقة؛ وبالحفاظ بالحقائق السرمديّة التي تشكّل الأساس العام للإيمان.⁽²⁾ لكن كيف يمكن القيام بذلك في الإسلام؟ فكل شيء قائم على نفس الأرضية للمرجعية الإلهية: الحج، الرضوء، والصيام، كلها إلزامية مثل العقيدة نفسها، والمسلم عبثاً يتطلع لتحرير نفسه من فرض الحجاب، وإلغاء رخصة تعدد الزوجات، الطلاق، والعبودية، أو إلغاء الأمر الذي ينزل اليهود والمسيحيين إلى موقع الدونية والإذلال. وخلافاً لحال الأمم المسيحية، فإن بعض التحسن والتطور في هذه الأشياء يمكن أن يتم تجربتها، بيد أن ذلك سيكون ضد طبيعة وعلى النقيض من القانون الذي يقيّد الضمير الإسلامي.

(1) Dr. Weil's "Einleitung" p. 125.

(2) Dr. Weil's "Einleitung" p. 125.

إنَّ المؤلّف العالم عينه كان سيقتراح التبشير إلى المسلمين بوضع «الكتاب والمُقدَّس وكتاب تعليمه»، ويثق بالتربية: إننا لن نستسلم لانعدام الأمل بتغيير عقل المسلم، بل على العكس، لدينا الجزء المحفوظ من القرآن (كما رأينا) يقرُّ كلياً مرجعية الكتاب المُقدَّس، ويكفل لنا، إذاً، قبول الإنجيل من تابعي الإسلام بحماسة.

ووفقاً لذلك، فإنَّ الجزء الثاني من هذه المعالجة ستخصّص لمراجعة الشهادة التي يحتويها القرآن على أصالة ومرجعية كتب العهدين القديم والجديد المُقدَّسة.

الجزء الثاني

شهادة القرآن لكتب المهدين القديم والجديد

تحت ضغط تأكيد المدافع المسيحي الذي يُبرز البرهان المأخوذ من المهدين القديم والجديد، فإن المُحمّديّ يعترف بالأصل الإلهيّ لكليهما، لكنّه يتفادى الحجّة برفض موثوقيّة النسخ الموجودة. وكونه راسخاً برأيه حول سلامة القرآن - النصّ الذي يؤمن بأنّه محفوظ بعناية إلهيّة خاصّة من عوامل الزمن، وأخطار التدوين، وسوء الحراسة البشريّة - فإنّه ينظر بدهشة إلى الأساس الضعيف الذي نرضى الركون إليه. ويحيلنا إلى الآيات التي تناقض النقاوة المحتواة في كتبنا المُقدّسة، وإلى بعض الإضافات إلى النصّ الأصليّ التي نحن مجبرون على التسليم بها، إمّا بالصدفة، أو بتصميم؛ وهو ينظر بازدراء إلى كامل الكتاب المُقدّس على أنّه حشد من القراءات المنوعة غير الجديرة بالثقة. ويؤكد المُحمّديّ أنّه من المستحيل الآن تمييز الفقرات الأصليّة عن الأخرى المحرّفة، وتبيّن الإلهيّة والحقيقيّة من البشريّة والضالّة. ولهذا، فإنّ أيّ برهان مستلّ من الكتب مرمرٌ بعيداً. ومهما كان الاختلاف مع القرآن فهو أمر مرفوض وحتميّ بدون حجّة إضافية؛ وهو مُدان على أنّه إقحام مختلق لغاية محدّدة إلّا وهي دعم اليهوديّة والمسيحيّة ضدّ دعاوى مُحمّد الأرفع منزلة.

ويجد المُحمّديّ تأكيداً قوياً في هذه العقيدة بالآيات التي يتهم فيها القرآن اليهود بكتمان البشير النبويّ بقدم مُحمّد، إذ أنّهم «حَرَفُوا» و«بَدَّلُوا» كتبهم لهذه الغاية. وإنّه لحقّ تماماً، أنّه لو أخذت هذه العبارات بعيداً عن سياقها فإنّه

يمكن أن تتّسع لتعني أن اليهود قاموا بتغيير وتحريف النصّ المقدّس. لكنّها يجب أن تُؤوّل في تناسّق ضمن السياق الطبيعي للنصّ، وكذلك من منظور القرآن العامّ بشأن القضية. إن دراسةً دقيقة للقرآن، وبارتباطه مع حياة مُحمّد، تقنّعي بأنّ اتهام الاختلاق ليس مبرّراً من سياق النصّ، بل هو يتعارض مع الآراء المُعبّر عنها في آيات عديدة كثيرة؛ وفي واقع الأمر، فإنّ الموقف الذي يتّخذه المُحمّدونيّون متعذّر الدّفاع عنه بالإجمال.

يُشار في كلّ مكانٍ من القرآن إلى المهدّين القديم والجديد على أنّهما موجودان وأنّهما قيّدا التّداول؛ ويُحضّر اليهود والمسيحيّون على أتباع تعاليم كتبهم المقدّسة الخاصّة؛ ومن البداية إلى النهاية يرد الحديث عن قسميّ الكتاب المقدّس بلغة التّوقير والإجلال المتساويين بدون شكّ مع الإيمان المخلص في أصالتهما وصحّتهما. إنّ العبارات المُشار إليها في المقطع السابق يُمكن تكون مفسّرة على نحو طبيعيّ بالضبط وفقاً لهذه النظرة، ومن ثمّ من الواجب أن تُؤوّل حسبها، وليس في معنى يعاكس بقيّة نصّ القرآن.

ولكي يتمّ إصدار حكم تامّ وقاطع علينا أن نبيّن هنا أنّ هدف القرآن العامّ هو كما عرضنا في هذا الموضع، وأيضاً بأنّه لا يمكن أن نجد أيّ نصّ في القرآن يخالف هذا المعنى بالضرورة. ولأجل هذه الغاية، فإنّ الاستعراض يحتاج إلى أن يكون شاملاً، ويجب أن نضع كلّ آية تشهد مباشرة أو ضمناً للكتب موضع الدرس، كما تلك التي ذُكرت بجلاء.

إنّ غاية هذه الدراسة أن تقدّم المجموع الكامل للشّهادة المحتواة في القرآن، ومنها يُستتج بأنّ الكتب اليهوديّة والمسيحيّة، كما كانت قائمة في عصر مُحمّد، كان يُنظر إليها على أنّها أصيلة وذات مصدرٍ إلهيّ. إنّ الكتاب موجّه للمُحمّدّيين، وقد نظّم بصيغة ملائمة لترجمته إلى اللغات الشرقيّة. ونُشر لأوّل مرّة في أگرا، سنة 1855، وأعيد طبعه الآن مع بعض التعديلات

الطفيفة كدراسة إضافية للموضوع المقترح.

أوردتُ الآيات القرآنيَّة باللغة العربيَّة الأصليَّة وبالإنجليزيَّة. وحيث ما دعت الحاجة، فإنَّها سُرِحت، وتمَّ تقديم شهادتها لصالح الحجَّة الكُتَّابيَّة؛ وإنَّ تفسير الشارحين الأساسيين اقْتُبِسَ أحياناً. وتَجعَلُ هذه العمليَّة تكرار بعض الحجج حتمياً، وقد أُعيد تلخيص النقاط الرئيسة في القسم الختامي. وإنَّ القارئ الذي يُبقي في ذهنه مخطَّط المجموعة سيصفح عن الخلل.

تمهيد

إنَّ الغايةَ الَّتِي أصبوا إليها في الصفحات التالية، أنْ أجمعَ سوياً، جميعَ الآياتِ من القرآن، التي تتصلُ بأيِّ شكلٍ بالكتبِ اليهوديةِ والمسيحيةِ، كما كانت موجودة في عهدِ مُحَمَّدٍ، بحيث يدركُ الْمُحَمَّدِيُّونَ أنَّ كتبَ العهدَيْنِ القديمِ والجديدِ لم تُذكر في القرآن إلا بتوفير كبير، وربما يلفت ذلك انتباههم إلى أصلها الإلهي، وقيمة تعاليمها التي لا تُقدَّر بثمن.

إنَّ ترتيبَ الآياتِ سيكون، بقدر الإمكان، تاريخياً. فالأجزاء التي وردت في السورِ المَكِّيَّة، وهي قبل الهجرة، ستشكِّل القسمَ الأوَّل، وتلك التي نزلت في يَنَرب، بعد الهجرة، ستكون القسمَ الثاني. ورغم أنَّ الترتيبَ العامَّ لسور القرآن صار معروفاً من محتوياتها على وجه التقريب، فإنَّه ثمة خلاف بالرأي جدير بالاعتبار بين العلماء الْمُحَمَّدِيِّين بصدد بعض التفاصيل. إنَّ الكاتب، وبعد أن عادَ إلى القائمة الكرونولوجية لسور القرآن التي قدَّماها الكتابُ الْمُحَمَّدِيُّونَ وآخرون، قام بترتيب الآيات في تعاقب كرونولوجيٍّ، على أفضل ما بوسعه. إلَّا أنَّه ما زال ممكناً هنا ملاحظة وجود بعض التعارضات في الترتيب، لكنَّها لن تؤثر على قيمة المجموعة؛ ذلك أنَّ الآيات الممتدة على كامل حقبة رسالة النبيِّ، وعلى طول العهد، تقدِّم نظرة ثابتة بصدد الكتبِ اليهوديةِ والمسيحيةِ.

كما تشغل قصص الأحداث المسجَّلة في كُتب اليهود والمسيحيين قسماً هاماً من القرآن. أمثال هذه القصص تُظهر تطابقاً شديداً بشكل متكرر للغاية - في بعض الأحيان حتَّى في الكلمات والشكل وصيغة التعبير اللغوية - مع المقاطع المتناظرة من الكتاب المقدَّس. ونجد أمثلة عديدة لهذا الشبه في

روايات سقوط آدم وحواء؛ وفي قصص نوح والطوفان؛ وإبراهيم وسارة، وإسحق، ولوط، وتدمير سدوم وعمورة، وفي تواريخ موسى ويوسف؛ وزكريّا، ويوحنا المعمدان، ويسوع المسيح، بما في ذلك بشارة جبريل به، وحمل مريم العذراء له، وميلاده. وبوسعنا من نظائر هذه التشابهات تقديم الحجة لتيان كم هي عديدة نقاط الكتاب المقدّس التي تلقى دعماً من القرآن. بيد أنّه لم تتمّ مقارنة هذا الموضوع. إذ أنجز البرهان بدون الإشارة إلى هذه التطابقات، التي سيدرسها المسلم عميق التفكير بدون شكّ منفرداً، عبر إجراء مقارنة دقيقة للقرآن مع الكتب المقدّسة.

ثمة فئة أخرى من الآيات، مع إنّها تقع بالضبط تحت ظلّ هدف مجموعة النصوص هذه، لكنّ لم يكن ثمة من ضرورة لاقباسها تفصيلاً، بل اكتفينا بالإشارة إليها هنا على وجوه العموم فحسب.

إنّ اليهود والمسيحيين يُسمّون عادةً في القرآن:-

أَهْلُ الْكِتَابِ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ - الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - أَهْلُ الْإِنْجِيلِ.
أو:

أَهْلُ الذِّكْرِ - الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ.

إنّ هذه العبارات متفرّقة بين دفتي القرآن وتكرّر حوالي خمسين مرّة. إذ كان من المعروف على نطاق واسع حقيقة أنّ اليهود والمسيحيين يحوزون كتاباً متداولاً ومنزلاً من الإله، وهو يمنح القرآن اسمه الأكثر شيوعاً. إنّ العبارات مألوفة للغاية لكلّ قارئ، وتصادف كثيراً، وسيكون عملاً زائداً وغير مناسبٍ إيراد مختلف الآيات التي تحتويها في هذه المجموعة بالتفصيل.

بالنسبة للآيات الأخرى، فربّما يترأى للقارئ أنّ لبعضها اتّصلاً بعيداً بالموضوع، بيد أنّنا آثرنا التعرّض لهذا النقد على صيغ مختاراتنا هذه بشبهة

وجود نقيصة، أو أنَّ هذه الآيات أُختيرت لأنها ملائمة للحجَّة المَسيحيَّة. وبناءً على ذلك، فإنَّ كلَّ آية - بعد فحص دقيق ومكرَّر لكامل القرآن - بدت أنَّها تحتوي أدنى إشارة إلى الكتب اليَهُودِيَّة والمَسيحيَّة أدرجت في المجموعة.

القسم الأول

الآيات من السور المنزلة في مكة

1. إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى، حسب الترتيب التاريخي للقرآن، التي تحتوي عبارة تشير إلى الكتاب المقدس هي:

سُورَةُ الْأَعْلَى (87 / 18-19).

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.

تعليق الجلالين: ﴿إِنَّ هَذَا﴾: إفلاح من تزكّى، وكون الآخرة خير. ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾: المنزلة قبل القرآن.

2. وبشكل مماثل، سُورَةُ النَّجْمِ (53 / 36-39).⁽¹⁾

أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى،

وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى؟

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى،

(1) سورة مكية من حقبة متأخرة، أوردناها هنا لأن لها نفس المعنى لما في الفقرة الأولى.

وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، ...

يشير هذا الشاهد، مثل الأول، إلى الكتب السابقة المنزلة؛ وإضافةً إلى ذلك، يحتوي على مُجَعَّل لمضامينها العامة، كمسؤولية الإنسان، الثواب والعقاب في يوم الحساب، وقوة وعناية الإله، الخ. وهي تنتهي بهذه الكلمات: ﴿هَذَا (مُحَمَّدٌ) نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾.⁽¹⁾

إنَّ الإشارة إلى «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ»، يُقصد بها على الأغلب صُحف تاريخه وأقواله، الموجودة في العهد القديم. إذ أنَّ الْيَهُودَ لا يتداولون كتاباً باسم «كتاب إِبْرَاهِيمَ». ولا يوجد أيُّ إلماح في كُلِّ الْقُرْآنِ إلى ما يمكن أن يدفعنا إلى الاعتقاد أنَّ مُحَمَّدًا كان يقصد أيَّ كتابٍ آخر غير أسفار مُوسَى الخمسة أو الكتب المُقدَّسة والتي كانت قيد التداول بين يَهُودَ زمنه، وهي الكتب التي كانوا يعتبرونها منزلةً.

3. سورة عبس (80 / 11-16).

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ،

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ؛

فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ،

مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ،

(مكتوبة) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ،

كِرَامٍ بَرَرَةٍ.

يبدو أنَّ هذه الآيات تتعلق بالقرآن؛ لكن، حسب بعض المفسرين ذوي الشأن، تُفهم بأنها تعني: «كتب الأنبياء السابقين، والتي يوافقها القرآن»، ولهذا

(1) سُورَةُ النُّجُم (53 / 56).

أوردناها هنا إكمالاً للمجموعة.

4. سُورَةُ السَّجْدَةِ (32 / 23 - 25).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ؛ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

إِنَّ الْكِتَابَ الْمُشار إليه هو الأسفار الخمسة، التي أنزلها الله ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ويؤمر مُحَمَّدٌ في هذه الآيات بالآ يشك بأنه يتلقى الوحي، وأن يقر بالهَيْتِهِ.

البعض يؤول الكلمات بأنه يتوجب على مُحَمَّدٍ ألا يشك بتلقي القرآن، أو بقاء موسى، أو بتلقي كُتُب موسى الخمسة؛ كما يقول البيضاوي: «من لقائك (مُحَمَّد) الْكِتَابَ (القرآن)، أو من لقاء موسى الْكِتَابَ (الأسفار الخمسة) أو من لقائك موسى».

بأي حال، إن هذه التفسيرات لا تؤثر على الشهادة لِكِتَابِ موسى الواردة في النص.

إنَّ المقطع يتضمَّن، فوق ذلك، استمرار وجود العهد القديم بين الإِسْرَائِيلِيِّينَ. وقد خصَّصهم الله بوصف ﴿أُمَمَةً﴾، أو معلمين، الذين يرشدون حسب وصايا الله؛ وهذا يعني، حسب الأوامر المُبلَّغة في الآيات المذكورة أعلاه:

«يهدون الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام بأمرنا إِيَّاهم أو بتوفيقنا لهم» - البيضاوي.

إِنَّ الشَّعْبَ الْيَهُودِيَّ، فِي تِلْكَ الْأَزْمَنَةِ حَافِظٌ عَلَى الدِّينَانِ، وَكَانَ ثَابِتًا عَلَى الْإِيمَانِ الصَّادِقِ بِالْوَحْيِ؛ «يُوقِنُونَ لِامْعَانِهِمْ فِيهَا النَّظَرَ» (م.ن). بَيِّدَ أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا بَعْدَ عَصُورٍ، إِنَّمَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَوْ مَعَ الْمَسِيحِيِّينَ، كَمَا تَشَعَّبَتْ آرَاؤُهُمْ فِي مَعْنَى كِتَابِهِمْ؛ وَقَدْ أَضَافَ: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ».

يعني النصّ ضمناً أَنَّ الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ كَانَتْ مَحْفُوظَةً وَنُقِلَتْ بَيْنَ الْيَهُودِ بِنَقْلٍ، رَغْمَ أَنَّ الْاِخْتِلَافَاتِ دَبَّتْ فِي تَأْوِيلِهِمْ لَهَا، وَفِي تَعَالِيمِهِمُ النَّاشِئَةِ عَنْهَا.

5. سُورَةُ الزُّمَرِ (39/ 64-65).

قُلْ: أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ؟

وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ، وَآلِيَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ، لَئِنْ أَشْرَكْتَ؛ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

لَقَدْ رُوي بِأَنَّ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ نَزَلَتْ عَلَى مُحَمَّدٍ نَفْسَهُ، كَمَا «إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» - «أَيَّ مِنَ الرُّسُلِ». (الْبَيْضَاوِيُّ).

إِنَّ هَذِهِ شَهَادَةٌ عَلَى صِفَاءِ التَّعَالِيمِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى مَنْ سَبَقَ مُحَمَّدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا وَجَدَتْ فِي كِتَابِهِمُ الْمَوْجُودَةِ فِي زَمَنِهِ.

6. سُورَةُ الْقَمَرِ (54/ 43).

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ.⁽¹⁾

«الزُّبُرُ»: «الْكَتُبُ» - (الْجَلَالِينُ)، أَوْ «الْكَتُبُ السَّمَاوِيَّةُ» - (الْبَيْضَاوِيُّ). مِنَ الْجَلِيِّ أَنَّ الْعِبَارَةَ تُشِيرُ إِلَى الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَوْجُودَةِ، وَالتِّي يُحَالُ الْمَكِّيُونَ

(1) أَكْفَارُكُمْ [أَيُّهَا الْمَكِّيُونَ] خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ [أَيَّ مِنْ أَهْلِ نُوْحٍ، وَلُوطٍ، وَمُوسَى، الْخِ، الَّذِينَ أُشِيرَ إِلَيْهِمْ لِلتَّوْبَةِ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ].

إليها، لبيان أنه ليس من حصانة للكفار أو الوثنيين في أي من الكتب المنزلة. إن المقطع ليس ذا شأن، بيد أنه قدّم لتلميم الهدف.

7. سُورَةُ سَبِّ (6 / 34).

وَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

«العلم»: يعني المعرفة بالكتب المنزلة السابقة. «الذين أوتوا العلم» تعني: «مؤمنو أهل الكتاب [كعبد اللّٰه بن سلام وأصحابه]» - (الجلالين).

إن معنى الآية معرّز بمقاطع كثيرة مشابهة سترد فيما بعد، وهو أن أولئك الذين لديهم الوحي الذي تحتويه الكتب المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة، يقرّون بالعلم الإلهي المشتق منها، وأيضاً بأن القرآن وحي حق.

8. سُورَةُ سَبِّ (31 / 34).

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: «لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»⁽¹⁾.

«الذي بين يديه» - الموجود في ذلك الحين، والذي يتقدّم القرآن.

يشرح البيضاوي: بأن الكافرين يقولون: «لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَلَا بِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ». ويضيف الجلالين: «كَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ».

إن مُحَمَّدًا في جداله مع أهل مَكَّة، احتكم إلى الكتب اليهوديّة والمسيحيّة، كما إلى القرآن أيضاً، لإثبات البعث الذي يرفضونه. بيد أن المكيّين أجابوا بأنهم لا يؤمنون لا بالأولى ولا بالثانية.

(1) «وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»، أي: ولا بالذي أوحى من قبل.

لاحظ، كيفية إظهار أهل مكة، هنا وفي مكان آخر، عندما يدور الحديث عن الكتب اليهودية والمسيحية؛ أنهم يعرفون الكتب الموجودة والمتداولة حولهم.

9. سورة فصلت (41/ 45).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَاخْتَلَفَ فِيهِ.

10. سورة الجاثية (45/ 16 - 17).

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، وَالْحُكْمَ، وَالنُّبُوَّةَ؛ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ (الدين)؛ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

إن هذا المقطع، وإلى جانب أنه يشهد على الأصل الإلهي للكتب المقدسة اليهودية، يوضح ماهية الأخطاء التي قيل إن أصحاب هذا الوحي وقعوا فيها. إن الوحي (العلم) يحتوي على «بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ»، ومع ذلك فإنهم تنازعوا فيما بينهم؛ ويبدو أنه يشير إلى الاختلافات بين اليهود والمسيحيين، والتي أرسل مُحَمَّد - حسب القرآن - لتسويتها بشكل قاطع. وكانت هذه الاختلافات قد نشأت - حسب مفهوم النص - نتيجة للأهواء، والغيرة، والتحاسد فيما بينهم؛ وليس جراء أي نواقص في كتبهم المقدسة.

11. سُورَةُ الصَّافَّاتِ (37/ 35 - 37).

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ: «إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ مُّجْنُونٍ؟»

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ.

هنا إذاً، وفي معرض ردّه على خصومه في مَكَّة، كانَ الدفاع الرئيس للنبيّ ضد وصفهم له بأنّه ﴿شَاعِرٌ مُّجْنُونٌ﴾، أنّه جاء بالوحي وشهد على وحي المرسلين السابقين.

12. سُورَةُ الصَّافَّاتِ (37/ 114 - 118).

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ،

وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ؛

وَنَصَرْنَاهُمْ، فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ؛

وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُنْتَبِئِينَ،

وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

﴿الْكِتَابَ الْمُنْتَبِئِينَ﴾: هو التَّوْرَةُ. - (البَيْضَاوِيُّ؛ والجلالين).

13. سورة الشعراء (26/ 192 - 197).

وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ،

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ.

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ.

أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

لكي يبرهن مُحَمَّدٌ أَنَّ الْقُرْآنَ وَحْيٌ حَقٌّ، فإنّه خاطب أبناء بلده الْمَكِّيِّينَ،

وأكد ﴿إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ يعني، كما ذكر في ذلك الموضع، أو على الأعم الأغلب، يحتوي وحياً ذا معنى مشابه. وهذه وجهة نظر البيضاوي: «إِنَّ ذكره (القرآن) أو معناه لفِي الكتب المتقدمة». وَإِنَّ ﴿زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾، هو التزليل اليهودي والمسيحي، ويقول الجلالين: «كالتوراة والإنجيل».

ولتقوية الحجة فإن تفسير الجلالين يقول بأن بني إسرائيل العالمين بالكتب، يقرّون بأن القرآن من عند الله لأنه مشابه لما في كتبهم: ﴿وَإِنَّهُ﴾: ذكر القرآن المنزل على مُحَمَّد ﴿لَفِي زُبُرِ﴾: كتب ﴿الأَوَّلِينَ﴾ كالتوراة والإنجيل. ويقول البيضاوي: «... أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم».

لا نحتاج هنا إلى فحص قناعة مُحَمَّد بأن الكتب السابقة أنبأت حقاً أنه نبيّ حان خروجه؛ أو أن بعض علماء اليهود، وكانوا يصدّقون شهادته الجديّة وتصديقه على كتبهم، قد قاموا بتقديم دليلهم في صالح تنزيله ورسالته؛ ذلك أن شاعلتنا هنا ليس البحث عن أسس مثل هذا الإيمان أو الشهادة، بل همّنا لفت الانتباه إلى الطريقة التي يتحدّث بها عن الكتب اليهوديّة في النصّ مثل الكتب المتداولة بين اليهود؛ تلك الكتب، التي يُزعم بأن في محتوياتها شبيهاً وثيقاً لما في القرآن، بحيث قدّم التطابق في الجدل مع المكيين كبرهان على تنزيل القرآن نفسه؛ والحجّة دُعمت بشهادة العلماء اليهود الذين كانوا على إطلاع على الكتب المحتكم إليها.

لا يمكن لمثل هذا المنهج إلا أن يعتبر الكتب الموجودة أصيلةً، وموثوقةً؛ إن الكتب المقدّسة المُعترف بها على الأقل من قبل مُحَمَّد هي كذلك؛ ويُنظر إليها أنّها فوق شبهة فساد أو تحريف.

14. سُورَةُ الْأَخْقَافِ (46 / 4).

إِتْرَنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَاةً مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

إِنَّ مُحَمَّدًا يَتَحَدَّى قُرَيْشًا بِأَنْ يَأْتُوا بِأَيِّ كِتَابٍ مِنْزِلٍ، أَوْ بِأَيِّ مَعْرِفَةِ إِلَهِيَّةٍ أَوْ وَحْيٍ (عِلْمٍ). وضد إدانة النَّبِيِّ لِلوثنِيَّةِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا رَدَّتْ عَلَيْهِ، دَعْمًا لِعَقِيدَتِهَا، بِأَنَّ الوثنِيَّةَ قَدْ أُجِيزَتْ مِنَ اللَّهِ، أَوْ إِنَّ الْأَوْثَانَ وَسَائِلَ لِلتَّقَرُّبِ مِنْهُ.

لم تُذكر الكُتُبُ الْيَهُودِيَّةُ وَالْمَسِيحِيَّةُ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ، بِيَدِ أَنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ بِوَسْعِهِ أَنْ يَحْتَكِمَ إِلَيْهَا فَعَلِيًّا لَوْ كَانَ الشُّكُّ يَسَاوِرُهُ بِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَوِي أَيَّ شَيْءٍ - إِمَّا بِالْأَصْلِ أَوْ بِالِاتِّحَامِ - يَحَابِيهِ غَيْرَ الْعِبَادَةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ الْوَاحِدِ. إِنَّ الْآيَةَ تَعْنِي: «بَوْسَعِكُمْ أَنْ تَبْحَثُوا كُلَّ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، بِيَدِ أَنْكُمْ لَنْ تَجِدُوا فِيهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً دَعْمًا لِمَوْقِفِكُمْ».

15. سُورَةُ الْأَخْقَافِ (46 / 10).

قُلْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ؟ وَاسْتَكْبَرْتُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

كَانَ ثَمَّةَ يَهُودِيٍّ مُقِيمٍ إِمَّا فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَزُورُهَا مِنْ يَثْرِبَ أَوْ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ - وَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَكَّةَ عَلَى أَيِّ حَالٍ - فَأُسْتُشْهِدَ بِهِ أَمَامَ الْمَكِّيِّينَ عَلَى أَنَّهُ يَحْمِلُ شَهَادَةَ تَطَابُقِ الْقُرْآنِ مَعَ الْكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ يُؤْمِنُ بِهِ. يَقُولُ مُحَمَّدٌ: «أَلَا يَبْرَهْنُ ذَلِكَ عَلَى الْمَصْدَرِ الْإِلَهِيِّ لِلْقُرْآنِ، وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ؟»

يقول البيضاوي:

«عَلَى مِثْلِهِ»: مِثْلُ الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْمَعَانِي الْمُصَدِّقَةِ لِلْقُرْآنِ، الْمَطَابِقَةِ لَهُ؛ أَوْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَهُوَ كَوْنُهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. «فَأَمَنْ»: أَيُّ بِالْقُرْآنِ لَمَّا رَأَى مِنْ خَبَرِ الْوَحْيِ مَطَابِقًا لِلْحَقِّ».

على ذلك فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَحْتَكِمُ إِلَى شَهَادَةِ يَهُودِيٍّ، الَّذِي (كَمَا يُزْعَمُ) يَجِدُ مَعَانِي تَنْزِيلِ مُحَمَّدٍ مُطَابِقَةً مَعَ فَحْوَى كِتَابِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَنْزُلةِ مِنَ اللَّهِ، وَالَّذِي

وصل إلى استنتاج بأنَّ القرآن كان منزلاً من الله أيضاً. إنَّ الاحتكام في الواقع، كما في مكان آخر، إلى الكُتب المُقدَّسة نفسها، المتداولة بين اليهود آنذاك؛ يعني ضمناً أنَّ مُحَمَّدًا لم يكن ينظر إليها على أنَّها منزلة وجديرة بالاعتماد فحسب، بل أنَّها خالية من التحريف، وأصيلة.

16. سُورَةُ الْأَخْفَابِ (46/ 11 - 12).

وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ: هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ. وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى، إِمَامًا وَرَحْمَةً؛ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ، لِّسَانِ عَرَبِيٍّ، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ.

لقد رفضت قُرَيْشُ القرآنَ بوصفه «إِنْكَ قَدِيمًا»؛ وعلى الأرجح كانت تعني بذلك أنَّه اختلَقَ من الكُتب السابقة، ولَفَّقَ على أنَّه جديد. وقد ردَّ مُحَمَّدٌ على ذلك بأنَّ كتابَ مُوسَى كان - حسب اعترافهم الخاص - «إِمَامًا وَرَحْمَةً»؛ وأنَّ القرآنَ لم يكن تليقاً، بما أنَّه معدٌّ بشكل رئيس لتصديق (لاستعمال العرب، وبالتالي باللسان العربي) كتابِ مُوسَى نفسه، أو الكُتب المُقدَّسة التي سبقته عموماً. وبهذا يقولُ البَيْضاوي: «مصدق لكتاب موسى أو لِمَا بين يديه».

إذاً، إنَّ القصد الرئيس، أو على أيِّ حال، أحد مقاصد القرآنِ الأساسية، كان تزويد العربَ بلغتهم الخاصة بالمصادقة على الوحي السابق.⁽¹⁾ إنَّ القرآنَ

(1) كان ذلك، بدون شك، هدفاً صادقاً وحقيقياً لِمُحَمَّدٍ عند هذه المرحلة من رسالته، ولاحقاً، فإنَّ غاية المخططات تغيَّر مع ظروفه؛ وفي يَتَرَبَّ باكمال الإسلام، فإنَّ القرآنَ لم يعد بعد الآن مجردَ تصديق للكُتب السابقة. بل أصبح في نهاية المطاف، الكتاب الأكثر جدارة بالاعتماد، وأنها مشيئة الله التي قامت بنسخها برمتها. وليس من المناسب، مع ذلك، إثارة هذه النقطة بتوَّسع، لأنَّها ستثير حفيظة المسلمين، والهدف هنا هو جذبهم إلى كتبنا المُقدَّسة، وليس إلى تنفيرهم بإثارة روح الشقاق والعداء.

لم يهدف إلى أن يحلَّ محلَّ الكتب اليهودية؛ بل أُريد به أن يكون «تصديقاً» للكتب، وسهّل الوصول للعرب، وبالتالي باللغة العربية، ذلك أنَّ الكتب السابقة لم يكن لها أن تلعب هذا الدورَ لأنها كانت بلسانٍ أجنبيٍّ. وردّاً على اتِّهام قُرَيْشٍ لمُحَمَّدٍ بأنَّ قرآنه كان إفكاً قديماً، فإنَّه قدَّم برهانه على أنَّ القرآنَ كان توكيداً للكتب المنزلة السابقة.

بكل تأكيد، إنَّ مثل هذه اللغة منسجمةٌ فقط مع حالة أنَّ مُحَمَّدًا كانَ يعتبرُ الكتبَ اليهوديةَ إلهيةً وأصليةً تماماً.

17. سُورَةُ الْأَخْقَافِ (46/ 29-30).

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ؛

قَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ، وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ.

تعني «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» مُصَدِّقًا لِّمَا قَبْلَهُ، أي الكتب السابقة. وهذا المعنى يرد عند الجلالين: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي تقدّمه كالتَّوْرَةِ.

إنَّ وصف الجنِّ الوحيَ الجديدَ لإخوانهم، كان بأنَّه يصدِّق ويؤكد الحقيقة الخاصة بالكتب السابقة. وقد كانَ ذلك معلّماً البارز، وهدفه الرئيس، الذي قاموا بتوصيفه وتمييزه بهما.

ويُلاحظ هنا أنَّه يجاري بشكلٍ تامٍ المقطع الأخير المستشهد به. (ف 16).

18. سُورَةُ فَاطِرٍ (35/ 25).

وَإِن يَكْذِبُوكَ، فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (أنبياءهم)، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِالْبَيْتَاتِ، وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

إِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا بِشَكْلِ وَاضِحٍ: الْأَنْبِيَاءُ وَالْكِتَابُ الْيَهُودِيَّةُ وَالْمَسِيحِيَّةُ.

19. سُورَةُ قَاطِرٍ (35 / 31).

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ.

«مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»، أي: للكتب المقدسة التي أوحيت قبله. وبهذا المعنى يقول الجلالين: «تقدمه من الكتب»، والبيضاوي: «لما تقدمه من الكتب السماوية».

يُذَكِّرُ هُنَا تَصْدِيقَ وَتَأْكِيدَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى أَنَّهَا سَمَةٌ تَصِفُ تَنْزِيلَ مُحَمَّدٍ.

20. سُورَةُ مَرْيَمَ (19 / 12).

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا.

إِنَّ اللَّهَ (الَّذِي يَتَحَدَّثُ هُنَا) يَأْمُرُ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ بِأَنْ يَأْخُذَ الْكِتَابَ «بِقُوَّةٍ»، أَيْ الْكِتَابَ مِنْ كُتُبِ الْيَهُودِ الْمُقَدَّسَةِ (التَّوْرَةِ) - (الْجَلَالِينَ وَالْبِيضَاوِيِّ). إِنَّهُ لِإِقْرَارٍ بِأَنَّ الْكُتُبَ الْيَهُودِيَّةَ الْمُقَدَّسَةَ الْمَوْجُودَةَ فِي عَهْدِ يُوْحَنَّا وَيَسُوعَ، أَصِيلَةٌ وَغَيْرُ مُحَرَّفَةٍ.

21. سُورَةُ مَرْيَمَ (19 / 29-30).

فَأَشَارَتْ (مَرْيَمُ) إِلَيْهِ (يَسُوعَ الطِّفْلَ)؛ قَالُوا: «كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟».

قَالَ (يَسُوعَ الطِّفْلَ): «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ (أَيِ الْإِنْجِيلِ)، وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا.

ليس ثمة الكثير في هذا المقطع غير ذكر الأصل الإلهي للإنجيل.

22. سُورَةُ الشُّورَى (42 / 1 - 3).

حم

عسق

كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ، اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

بالنسبة لأسلوب وشكل الوحي، فإنَّ القرآن يضع هنا نفس المعيار الذي يخصُّ الكتب المُنزلة على الأنبياء السابقين. إنَّ كُتُبَ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ الْمُقَدَّسَةِ قد أُوحي بها بنفس طريقة وحي القرآن، إنَّ المسلمين ملزمون بتوقيرها بالمثل أيضاً.

23. سُورَةُ الشُّورَى (42 / 13).

سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى؛ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ.

يُعرِّفُ مُحَمَّدٌ الْإِسْلَامَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ نفس الدين، مثل الذي أُوحي إلى نُوح، وإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، أي ديانة العهدَيْن القديم والجديد: الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ.

24. سُورَةُ الشُّورَى (42 / 14 - 15).

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ (الوحي) بَغْيًا بَيْنَهُمْ: وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ. وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرثُوا الْكِتَابَ مِنْ

بَعْدِهِمْ لَنَنْفِيَنَّكَ مِنْهُ مُرِيْبٌ.

فَلَذَلِكَ فَادُّعُ (الناس إلى الدين الحق) وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ، وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ! وَقُلْ: «آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ، اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ. لَنَا أَعْمَالُنَا، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ. لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا،
وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ».

إنَّ المقطع أعلاه يتبع نهاية النص السابق (ف 22) حيث يرد ذكر أنبياء
اليهود والمسيحيين، والديانة الواحدة الصحيحة.

لقد تمَّ التأكيد هنا على أنَّ الذين أتى إليهم الوحي بصدد الديانة الحقَّة، أي،
اليهود والمسيحيين، وقعوا في الاختلاف بعد تلقِّيهم العِلْمَ؛ وأنَّ غضب الله
سيحقيق بهم مباشرةً، عن حقٍّ، لعداوتهم، بيد أنَّهم أمهلوا حتَّى يوم القضاء،
وأنَّ أولئك الذين ورثوا الكتب بعدهم، أي يهود ومسيحيي زمن مُحَمَّد، كانوا
في شكٍّ وحيرة فيما يتعلَّق بمعناها الحقيقيَّة. وعلى هذا فإنَّ المفسرين قالوا:
«الذين أُوْرثُوا الْكِتَابَ» وهم اليهود والنصارى:

«يعنى أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرِّسُولِ» - (الجلالين).

«لَنَنْفِيَنَّكَ مِنْهُ» ومن كتابه لا يعلمونه كما هو؛ أو لا يؤمنون به حقَّ
الإيمان - (البضاوي).

إِذَا، إِنَّ مُحَمَّدًا يَدْعُوهُمْ لِلإيمان الحقِّ، ويحثُّ نفسه على الثبات في العقائد
التي أنزلها الله، وألَّا يتَّبِعْ أهوام اليهود والمسيحيين العقيمة. وعليه في نفس
الوقت أن يعلن إيمانه بكلِّ ما أوحى الله به إليهم، وأنَّ يقولَ إِنَّهُ مَفْوُضٌ مِنَ اللَّهِ
بالفصل في اختلافاتهم وخلافاتهم. وعليه أن يعلمهم أنَّ إليهم وإليه واحد
وعينه؛ وأنَّ أعمالَ أهل الكتاب، وأعمال بني قومه مستقبل على قدم مساواة؛

وأن ليس من سبب فعلي للخلاف والتصدع فيما بينهم (قارن، ف 10).

يتبين في هذا المقطع: أولاً، إنَّ مُحَمَّدًا يتحدث بشأن الكُتُب اليهودية والمسيحية كما ورثها يَهُود ومَسِيحِيُّو زمنه، وكما كانت موجودة آنذاك، ومتداولة بالعموم بينهم. ثانياً، عبّر عن إيمانه بتلك الكُتُب بعبارات قاطعة، والتي تعني ضمناً أنها كانت تُعتبر أصيلة وغير محرّفة. ثالثاً، إنَّ السَّبب الوحيد للمجدل بينه وبين يَهُود ومَسِيحِيِّ عصره، كان الشكوك المزعومة والاختلافات التي وقعوا فيها، وتأويلاتهم وعقائدهم الباطلة، وعداوتهم واستحكام الشقاق فيما بينهم. وليس ثمة من خلاف أساسي بين مُحَمَّدٍ وبينهم؛ و﴿لَا حُجَّةَ﴾ أو ارضية للنزاع. وقد أعلن مُحَمَّدٌ بأنه مُرْسَلٌ ليسوي أخطاءهم وخلافاتهم، التي ليس لها أساس من الناحية الواقعية من كتبهم المقدسة. وبعد أن أقرَّ مُحَمَّدٌ بإيمانه في كتبهم أضاف: ﴿وَأَمِزْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾.

إنَّ المغزى الكلّي للمقطع يتعارض بشكل مباشر مع أيّ نهمّة ضدّ الأصالة أو ضدّ المصدر الإلهي للكتب المقدسة: إنَّ كانت يَهُودِيَّة أو مَسِيحِيَّة.

25. سُورَةُ غَافِرٍ (40 / 53-55).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى، وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ،

هُدًى وَذِكْرًى لِأُولِي الْأَلْبَابِ.

فَاصْبِرْ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.

يتفق المفسرون على أنَّ الْكِتَابَ المذكور هنا يُقصد به التَّوْرَةُ أو الْكُتُب الخمسة. إنَّ الأجيال كانت تتوارث كُتُبَ العهد القديم من جيل إلى آخر بعناية الله ﴿هُدًى وَذِكْرًى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. إنَّ الحقيقة الواردة في النص هي حجة

تفسر لماذا توجب على مُحَمَّدٍ أَنْ يكون صبوراً وواثقاً بيقينية وعيد اللّٰهُ له.

26. سُورَةُ هَافِرٍ (40 / 70-72).

الذين كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ، وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ؛
إِذَا الْأَغْطَالُ فِي أَغْنَانِهِمْ، وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ؛
فِي الْحَيِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ.

لم يُنذَرُ بهذه العقوبات القاسية، أولئك الذين كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ فقط، بل
«الذين كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ، وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا»، أي بالكتب اليهودية
والمسيحية المقدسة. إِنَّ كَلَامَ الرَّحْمَنِ وَضَعَا فِي نَفْسِ الْمَكَانِ، وكانت عاقبة
رفضهما واحدة.

وعندما يسقط مسلمو يومنا الحاضر في إغراء الحديث بضغينة عن الكتب
اليهودية والمسيحية المقدسة، وعن محتوياتها الإلهية، فليفكروا ملياً بتلك
الآيات القرآنية مثل التي وردت أعلاه، لئلاً يتعرضوا لخطر العقوبة المشار
إليها هنا.

27. سُورَةُ الْفُرْقَانِ (25 / 35).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا.

إشارة إلى الأصل الإلهي لِكِتَابِ مُوسَى، «التَّوْرَةِ» - (الجلالين).

28. سورة طه (20 / 133).

وَقَالُوا (الْقُرْشِيُّونَ): «لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ». أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ
الأولى؟

إِنَّ «الصُّحُفَ الْأُولَى» تعني الكتب المُقَدَّسة المتداولة بين اليهود والمسيحيين. ويشرحها البيضاوي على النحو التالي: «من التَّوْرَةِ والإنجيل وسائر الكتب السماوية». بيد أن الكتاب السماوي الوحيد، أو الكتب، التي تُدعى سماوية، المعروفة لأهل مَكَّة (الذين يُوجَّه إليهم الخطاب هنا)، كانت الكتب المُقَدَّسة لليهود والمسيحيين القاطنين في الجزيرة العربيَّة والأراضي المتاخمة لها. ومن البين أن الإشارة هنا إليها.

وحيثما طلب أهل مَكَّة آية معجزة، فإنَّ مُحَمَّدًا أحالهم إلى البرهان الذي تحتويه كتب هؤلاء سابقاً. ولم يكن ليقوم بالاحتكام إليها، ما لم يكن الحصول عليها سهلاً بالنسبة للمكِّيَّين: كما لم يكن ليفعل ذلك، لو لم يكن يعتبر هذه الكتب سماوية، وموثوقة أيضاً، وخالية من التحريف.

29. سُورَةُ الزُّخْرُفِ (43/ 45).

وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ.

«وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا»، أي: «أممهم وعلماء دينهم» - (البيضاوي)؛ «أمم من أي أهل الكتابين» - (الجلالين). يأمر الله مُحَمَّدًا بهذه الطريقة أن يسأل الرُّسل السابقين، لكي يتوثق بالتالي من حقيقة أن تحريم الوثنية لديه، يماثل ما يوجد في كل الكتب المُنزلة من قبل. إنَّ الإشارة إلى الرُّسل السابقين، تعني، إذاً، الرجوع إلى كتبهم الموجودة بين أيدي اليهود والمسيحيين. كما أظهر ذلك تفسير الجلالين، إنَّ أمر الله الموجب على مُحَمَّدٍ طرح هذا السؤال، تساوي صيغة تعبير لإقناع المكِّيَّين الوثنيين بأن لا أحد من الأنبياء السابقين، أو كتبهم المنزلة، تقرُّ عبادة آخر إلى جانب الله الواحد الحق:

«والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد» - (البيضاوي)

إِذَا، إِنَّ هذا المقطع يتحدث عن الكتب الموجودة والمعروفة جيداً، أو عن الذين يحوزونها، والله أحوال مُحَمَّداً للبرهان القاطع ضد الوثنية.

30. سُورَةُ يُوسُفَ (12 / 111).

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا﴾ هو هذا القرآن - (الجلالين والبيضاوي). وإنَّ الحجَّة هي نفسها كما في المقاطع السابقة التي شُرحت آنفاً (انظر ف 16).

31. سُورَةُ هُودٍ (11 / 16 - 17).

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ: وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا؛ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِّنْ رَبِّهِ؛ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ، وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً.

هنا رُسمت صورة بين الشرير الذي حُبط ما صنع، وبين المؤمن الصادق، ومن الملاحظ بجلاء أنَّ الثاني يتبع مُحَمَّداً (أو القرآن)، الذي ﴿قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. وهذا يتطابق كلياً مع ذكر تبجيلي وتشريفي للكتب المقدسة في كلِّ مكانٍ في القرآن.

32. سُورَةُ هُودٍ (11 / 110).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَاخْتَلَفَ فِيهِ. وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ، لَفُصِّيَ بَيْنَهُمْ؛ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ.

شهادة على الأصل الإلهي لكتاب موسى. وفيما يخص الباقي انظر الملاحظات على المقطع المُستشهد به في (ف 24)، مع نصّها المرافق.

33. سُورَةُ يُوسُفَ (10 / 37 - 38).

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ،⁽¹⁾ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ، - لَا رَيْبَ فِيهِ - مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَمْ يَقُولُونَ (مُحَمَّدٌ) افْتَرَاهُ! قُلْ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

عندما أتهم مُحَمَّدٌ باختلاق القرآن، كما في مناسبات أخرى، فإنه احتكم إلى حجة أن ذلك لا يمكن يصح، لأن القرآنَ تصديق الكتب السابقة.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: «مطابق لما تقدمه من الكتب الإلهية» - (الجلالين).

إنَّ مثل هذه الإشارة التي تفيد أنَّ القرآنَ يُؤكِّد الكتب الإلهية السابقة، أو يتطابق مع محتوياتها، تشكِّل احتكاماً فعلياً إلى الكتب نفسها كما هي لدى «أهل الكتاب»، وتبيِّن أنها كانت متاحة لأهل مكة؛ ويتعارض مع أيِّ تصوُّر آخر ما عدا أنَّ مُحَمَّدًا اعتبر هذه الكتب إلهية، وأصيلة، وغير محرَّفة.

34. سُورَةُ يُوسُفَ (10 / 94).

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ؛ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

«الكتاب الذي من قَبْل مُحَمَّدٍ»، وحسب شرح الجلالين يعني التوراة. لكن لا يوجد سبب يجعل الإشارة مقتصرة عليه. هنا، كما في مقاطع أخرى كثيرة، فإنَّ الكلمة ترد في أوسع معانيها، وتعني الكتب المتداولة بين المسيحيين كما

(1) أي تصديق تلك الكتب المُقدَّسة.

بين اليهود.

إِنَّ غَايَةَ اللَّهِ فِي إِحَالَةِ مُحَمَّدٍ إِلَى الْكُتُبِ وَأَصْحَابِهَا، هِيَ أَنْ يَكُونَ رَاضِياً عَلَى وَحْيِ الْقُرْآنِ، وَيُشْرَحَهَا الْبَيْضَاوِيُّ عَلَى النُّحُوِّ التَّالِي: «فَإِنَّ مُحَقِّقَ عِنْدَهُمْ، ثَابِتٌ فِي كُتُبِهِمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَلْقَيْنَا إِلَيْكَ؛ وَالْمُرَادُ تَحْقِيقُ ذَلِكَ وَالِاسْتِشْهَادُ بِمَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ».

﴿فَأَسْأَلُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. إِنَّ فَعْلَ «يَقْرَأُونَ» هِيَ حَاضِرٌ أَوْ مَاضٍ وَمَعْنَاهَا، «كَانُوا يَقْرَأُونَ» الْكِتَابَ.

إِنَّ الْكُتُبَ الْمُحْتَكَمَ إِلَيْهَا مَعْرُوفَةٌ أَنَّهَا قِيدَ التَّدَاوُلِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ؛ وَمُحَمَّدٌ يَتَوَقَّعُ لِلْبَحْثِ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِي كَانُوا يَقْرَأُونَهَا بِدُونِ تَحْدِيدِ أَيْ قَبِيلَةٍ مَعِيْنَةٍ، أَوْ شَعْبٍ، أَوْ دَوْلَةٍ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْذُلَ شُكُوكَهُ. إِنَّ الْبَحْثَ لَيْسَ مُقْتَصِراً، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، عَنْ يَهُودَ الْبَعْنِ، أَوْ يَثْرَبَ، أَوْ خَيْبَرَ، أَوْ عَنِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، مِثْلَ بَنِي حَارِثٍ مِنْ نَجْرَانَ، وَبَنِي طِيٍّ مِنْ تَيْمَاءَ أَوْ بَنِي حَنِيفَةَ مِنَ الْبَحْثِ. إِنَّ النَّبِيَّ يُحَالُ بِدُونِ تَمْيِيزٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ الْإِلَهِيَّ الْمَنْزُوعَ مِنْ قَبْلِ، سِوَاهُ كَانُوا أَحْبَاشاً، أَوْ سَرِيَاناً، أَوْ عَرَباً أَوْ مَصْرِيِّينَ، سِوَاهُ كَانُوا تَابِعِي الْمَمْلَكَةِ الْغَسَانِيَّةِ، أَوْ الْحِيرَةَ، أَوْ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ أَوْ فَارِسَ.

إِنَّهَا الْكُتُبُ الْيَهُودِيَّةُ وَالْمَسِيحِيَّةُ الَّتِي هِيَ قِيدَ التَّدَاوُلِ فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ الْمُتَحَضَّرِ فِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ، وَالَّتِي كَانَ يُحْتَكَمُ إِلَيْهَا، وَلِإِسْكَاتِ شُكُوكِ النَّبِيِّ، وَهَذِهِ الْكُتُبُ يَصَادَقُ الْقُرْآنُ لَا عَلَى تَنْزِيلِهَا فَحَسْبَ، بَلْ عَلَى أَصَالَتِهَا نِقَاطُهَا، وَخُلُوقِهَا مِنَ التَّحْرِيفِ.

35. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6 / 20).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

الشرح: «يَعْرِفُونَهُ» أي مُحَمَّدًا بنعته في كتابهم - (الجلالين). «يَعْرِفُونَهُ»: يعرفون رسول الله بحليته المذكورة في التَّوْرَةِ والإنجيل «كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» بحلاهم. «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» من أهل الْكِتَابِ والمشركون فهم لا يؤمنون - (البَيْضَاوِي).

انظر الملاحظات على الفقرات السابقة (7، 8)، حيث يرد اعتراف مماثل. إنه لأمر واضح لكل ذي عينين أَنَّ مُحَمَّدًا أشار، على هذا النحو، تكررًا إلى أَنَّ الْكُتُبَ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ - التي هي بين يدي أصحابها، يَهُودٌ وَمَسِيحِيُّ عَهْدٍ - تحتوي شهادة في صالح دعواه وعقائده، وَأَنَّ مثل هذه الإحالة تتسابق مع فكرة أَنَّها كتابات أصيلة وغير محرّفة، بدون أيّ تلميح أو شك بأنّها قد تعرّضت للتلاعب.

36. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6 / 89-90).

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ، وَالْحُكْمَ، وَالنَّبُوءَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ (الْقُرْشِيِّونَ)، فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ؛ فَبِهَدَاهُمْ اقْتَدِهْ. قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.

إِنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ أُشِيرَ إِلَيْهِمْ فِي الْكَلِمَاتِ الْإِفْتَاتِحِيَّةِ هُمُ الْيَهُودُ وَالْمَسِيحِيُّونَ. وتتضمن الآيات السابقة تعداداً لأبناء الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ، من إِبْرَاهِيمَ إلى يسوع، بما فيما ذلك: «دَاوُدَ، وَسُلَيْمَانَ، وَيَعْقُوبَ، وَيُوسُفَ، وَمُوسَى،

هَارُونَ، وَزَكَرِيَّا، وَيُوحَنَّا^(١)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾^(٢). وَإِنَّ النَّصَّ بِالْآيَةِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ، وَالْحُكْمَ، وَالنَّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ^(٣)، فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

﴿الْكِتَابَ﴾: يريد به الجنس. ﴿وَكَلْنَا بِهَا﴾: أي بمراعاتها - (البَيْضَاوِي).
﴿وَكَلْنَا بِهَا﴾: أَرَصَدْنَا لَهَا (الجلالين).

من المفترض أَنَّ الأشخاص الموكَّلين بِكُتُبِ العهد القديم والجديد المُقَدَّسَةِ يشملون طائفة متنوّعة، فهم أتباع الأنبياء اليهود والمسيحيين الموصوفين من قبل، أو أتباع مُحَمَّد، وهم الأنبياء المذكورون ومتابعوهم؛ وقيل الأنصار، أو أصحاب النَّبِيِّ؛ أو كُلُّ من آمن به، الخ - (البَيْضَاوِي).

إِنَّ مسألة على من تنطبق الإشارة ليست مهمة. ما هو واضح، وذو أهمية أساسية، أَنَّ الْقُرْآنَ يشير هنا إلى الكتب الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ التي كانت موجودة آنذاك، على أَنَّها موثوقة، ومنزلة، وأصيلة؛ وَأَنَّ حيازة الْكُتُبِ - رغم رفضها من قِبَل قُرَيْش الوثنية - نُقِلَتْ، أو سوف تُنْقَل، في وصاية آمنة إلى الذين آمنوا. ونحن نتساءل هل صار الوعد حينها باطلاً، إذ نرى أَنَّ المسلمين في وقتنا الحاضر يشكّون بأنَّ الكتب المُقَدَّسَةَ محرّفة أو مفسوسة فيها؟ هل أَنَّ حراسة الذين آمنوا، أولئك الذين جاء ذكرهم في النصّ ثبت زيفها؟ بدون تأكيد، لن يُكذَّب الْمُحَمَّدِيُّونَ كلمات الْقُرْآن.

(1) [الآيات: 84-86، م.].

(2) [الآية: 87، م.].

(3) ﴿هَؤُلَاءِ﴾: أهل مكة - (الجلالين)؛ قُرَيْش - (البَيْضَاوِي).

37. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6 / 71).

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ قَالُوا: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ». قُلْ، مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا، وَهُدًى لِلنَّاسِ؟ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا، وَتُخْفُونَ كَثِيرًا⁽¹⁾ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلْ: «اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

إِنَّ المقطع وكما يشرحه الجلالين: «وَمَا قَدَرُوا»: أي اليَهُود؛ «إِذْ قَالُوا»: إذا قالوا للنبي وقد خاصموه في القرآن. «تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ»: أي يكتبونه في دفاتر مقطعة. «تُبَدُّونَهَا»: أي ما يحبون إبداءه منها. ويخفون كثيرًا مما فيها كنعت مُحَمَّدًا.

وحسب هذا التفسير الوارد أعلاه، فإن النص هو خطاب لليهود. إن القسم الأكبر من السورة السادسة (الأنعام) كان قد تنزل في مكة، بيد أن الآيات الآتية نفسها أضيفت على الأرجح بعد أن توجه مُحَمَّدٌ إلى المدينة، وبعد أن شرع اليهود بمعارضتهم له. فزعم أنهم كانوا يعتقدون بأنه «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»، أي سوى كتبهم المقدسة الخاصة؛ أو ما أنزل على مُحَمَّدٍ، أو لعلَّه «مَا أَنْزَلَ» أي شيء بشكل مادي، وفق الطريقة التي أعلنها مُحَمَّدٌ، أن الله كان يُنزل القرآن بواسطة جِبْرِيل. وفي معرض الرد، فإن مُحَمَّدًا أشار، كتفنيد كامل، إلى «الكتاب الذي جَاءَ بِهِ مُوسَى»، الموجود آنذاك بأيديهم؛ الذي ينسخونه على ألواح أو قراطيس، أو - حسب شرح الجلالين - في دفاتر مقطعة، وبالتالي فإنهم قادرون على تقديم مثل هذه القراطيس أو الدفاتر المقطعة بالشكل الموافق لهم حينما يتجادلون مع مُحَمَّدٍ، وكذلك على إخفاء

(1) في بعض القراءات يرد «يُجْعَلُونَ، يُبَدُّونَ، يُخْفُونَ» عوضاً عن «تَجْعَلُونَ، تُبَدُّونَ، تُخْفُونَ» - (الجلالين).

ما لا يرغبون بإظهاره، لأنه قد يفند حجّتهم.

بدون شكّ كان مُحَمَّدٌ يؤمن بأنّ ثمة نبوءات في العهد القديم مؤيدة لرسالته، والتي لم يشأ يهود يثرب إظهارها، رغمًا عن حيازتهم لها في كتبهم المُقدَّسة.

ما إن كان هناك فعلاً مثل تلك الآيات، فإنّ ذلك، في الوقت الحاضر، لا يسترعي عناية بحثنا. ما هو جليّ، وفوق الجدل، أنّ مُحَمَّدًا يشير في النصّ إلى كُتب اليهود المُقدَّسة على أنّها منزلة، وباقية، وأصيلة؛ ويدور الحديث بشأنها بأسلوب يعني ضمناً أنّها حُفظت في حالة تامّة وكاملة من قبل القبائل اليهوديّة في يثرب، مع أنّ هذه القبائل لم تكن نزيفة إلى حدّ كافٍ كونها كانت لا تبرز إلاّ تلك القرايطيس التي تخدم غايتها وحجّتها. ولاحظ أنّه يُطلق هنا على كتاب موسى ﴿توراء، وهديّ للناس﴾.

38. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6/ 92).

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَازَكٌ، مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ (مَكَّة) وَمَنْ حَوْلَهَا. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ.

﴿الذي بين يديه﴾: قبله من الكتب - (الجلالين). يعنى التّوراة أو الكتب التي قبله - (البيضاوي).

إنّ هذه الآية تلي النص السابق ذكره في الفقرة (37). والخصيصة الرئيسة للقرآن هي أنّه ما زال يصدّق الكتب السابقة [﴿مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾]، وأنّه مُعدّد بالأخصّ إلى ﴿أُمّ القُرَى﴾ (أهل مكّة)، والذين يقطنون حولها.

39. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6/ 114).

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا، وَالَّذِينَ

آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ (الْقُرْآن) مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ. فَلَا تَكُونَنَّ (يَا مُحَمَّدًا) مِنْ الْمُمْتَرِينَ.

﴿والذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: أي التَّوْرَة - (الجلالين)، أو بعبارة أوسع الكتب اليهودية والمسيحية؛ وكذلك يرى البيضاوي: «المراد مؤمنو أهل الكتاب».

إن هذه الآية - مثل المقاطع السابقة (ف: 7، 13، 15، ...) - تتضمن تشابهاً أو تطابقاً بين محتوى ونظرات القرآن مع تلك التي في الكتب المقدسة السابقة؛ وإن شهادة الذين أنزل الله إليهم الكتب المقدسة، تقدم على أنها برهان كافي لحقيقة القرآن وأنها سبب يدعو محمداً ألا يشك بنفسه. وإن الملاحظات بصدد المقاطع السابقة تنطبق هنا على حد سواء.

40. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6/ 124).

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ، قَالُوا: «لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ».

إن أهل مكة، الذين عارضوا محمداً، رفضوا تلقي أي آية من القرآن ما لم يأتيهم بوحى يشابه كتب الأنبياء السابقين. وهذه إشارة غير مباشرة إلى الكتب المنزلة اليهودية والمسيحية، والتي كانت معروفة بعموم طابعها وأسلوبها في الجزيرة العربية، وحتى بين وثنيي مكة.

41. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6/ 154).

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً، لِّعَلَّهُمْ يَلْقَآءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ.

إذاً، إن الكتب السابقة كاملة وهي ﴿على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة﴾. فهل ثمة ثناء أجمل من ذلك؟ ولماذا إذاً - على الرغم من

هذه الإشادة _ قلّما تُثَمَّن هذه الكتب المُقدَّسة، ونادراً ما يُشار إليها من قبل أتباع القرآن المعاصرين؟

وإذا ما كانت الكتب السابقة تامةً إذًا، فما الداعي لنزول وحي جديد بالقرآن؟ إن الآية التالية تجيب على السؤال.

42. سُورَةُ الْأَنْعَامِ (6/ 155-157).

وَهَذَا كِتَابُ الْقُرْآنِ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ، وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ؛

أَنْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ؛

أَوْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْهِمَا الْكِتَابَ، لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ؛ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ....

﴿أَنْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ أي اليهود والنصارى - (البیضاوی والجلالین).

من الاستعراض الحالي يظهر أنَّ القرآنَ كانَ يهدف إلى نزع كلِّ مبرِّرٍ من المَكِّيِّين والعرب، لئلاَّ يقولوا: «إنَّ الكتبَ نزلت على اليهود والمسيحيين؛ ولكنها ليست ذات نفع لنا، لأننا لا نستطيع قراءتها أو فهم اللسان الأجنبي الذي كُتبت به. ولو أنَّ الوحي نزل إلينا بالعربية، لكننا مؤمنين قويمين مثلهم، أو حتَّى أكثر». إنَّ آيات القرآن تنزَّلت لإزالة هذا العذر. وليس لأنَّ الكتاب السابق كان ناقصاً (بل على العكس، يُشار إليه هنا على أنَّه «تَمَاماً على الذي أَحَسَّنْ، وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً»)، وعلى هذا فإنَّ القرآنَ ما نزل على العرب إلَّا لأنَّ الكتابَ مدوَّنٌ بلسان أجنبيٍّ. ولا يوجد هنا أدنى اتِّهام ضدَّ سلامة وطهارة الكتاب المُقدَّس، كما ضدَّ كماله. إنَّ النقصَ الوحيد هو أنَّه لم

يكن متاحاً باللسان العربي. لقد كُتب بلغاتٍ أجنبية، لم يكن العرب يلمون بها، ومن أجل تلبية هذا المتطلب جاء القرآن.

43. سُورَةُ الْقَصَصِ (28 / 43).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى؛ بِصَايِرَ لِلنَّاسِ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

إنها لشهادة مدهشة، وليس فقط بصدد الأصل الإلهي للكتب الخمسة، بل لقيمتها بوصفها نوراً لهداية غير اليهود: ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ و﴿هُدًى، وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

44. سُورَةُ الْقَصَصِ (28 / 46-49).

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ، إِذْ نَادَيْنَا (مُوسَى)؛ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ؛

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ، فَيَقُولُوا: «رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَتَسْبَحَ آيَاتُكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا، قَالُوا: «لَوْلَا أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى». أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ؟ قَالُوا: «سِحْرَانِ»⁽¹⁾ تَظَاهَرَا؛ وَقَالُوا: «إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ مِنْكُمْ».

قُلْ: «فَاتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا، أَتَّبِعُهُ؛ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

(1) فيما يتعلق بـ «سِحْرَانِ» ثمة قراءة أخرى «ساحران»، أي موسى ومحمد. وعلى هذا يقول البيضاوي: «ساحران وفي قراءة سحران أي التوراة والقرآن». [والقراءة الأولى: «سِحْرَانِ» هي قراءة الكوفيين. م.]

من جديد يُحدِّد هنا هدف رسالة مُحَمَّدٍ، ألا وهو تذكير النَّاسِ - أيَّ العرب - الذين لم يُرسَل إليهم نذير من قبل؛ وذلك كي لا يقول هؤلاء عندما يتعرَّضون للإدانة: «لو جاءنا نبيٌّ، لكنَّا مؤمنين». ومع ذلك حينما أتى مُحَمَّدٌ نبياً، فإنَّ أهل مكة رفضوا الإيمان به، ما لم يأت بالكتب (قراءة أخرى بالمعجزات)، مثل تلك التي أتى بها موسى. بيد أنَّ مُحَمَّدًا أجابهم: «ما لهذا هذا التناقض! ألم ترفضوا كتب موسى التي أتيتُ بها لكي أقيم لكم الدليل على صحة دعاويي، وقلتم بشأنها وبشأن القرآن ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ؛ قَالُوا: سِحْرَانِ، تَظَاهَرَا﴾». وبعدها، يُصوِّر النَّصُّ اللَّهُ يأمر مُحَمَّدًا أن يقول: ﴿فَاتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا، آتِيْعُهُ؛ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾.

تحتوي الشهادة هنا على موثوقية وقيمة كتاب موسى، وعلى مطالبها أهالي مكة بتقديم أي كتاب آخر يتضمن هُدى أكثر صدقاً، لا لبس فيه، وكاملاً. والشهادة هنا للكتب الخمسة، كما كانت موجودة وقتها بأيدي اليهود، وما فيها من مضامين أوردها مُحَمَّدٌ آنفاً، تصديقاً لعقيدته، والتي أحكم إليها، كما أنَّها هي من تحدَّى بها قريشاً مقرونة بالقرآن أن يأتوا بكتاب منزل ﴿أَهْدَى مِنْهُمَا﴾.

45. سُورَةُ الْقَصَصِ (28 / 52-53).

الذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ (أي قبل القرآن) هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ؛
وَإِذَا يُنْزَلُ عَلَيْهِمُ (القرآن) قَالُوا: «أَمَنَّا بِهِ؛ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ».

يُستلزم ضمناً في هذا النص أن أجزاء القرآن المُستشهد بها هنا، أو قُرئت، من قِبَل يَهُودٍ أو مَسِيحِيِّينَ معيَّنين تماثل ما في كتبهم الخاصَّة، وعلاوة على ذلك، احتوت مثل هذا التوكيد الدائم بأنَّ هدف رسالة مُحَمَّدٍ كَانَ تأكيد هذه الكتب، وأنَّ هؤلاء اليهود أو المَسِيحِيِّينَ عبَّروا عن اقتناعهم بحقيقة عقائد

مُحَمَّدٌ، وقالوا بأنها كانت تماماً لِمَا في كتبهم الخاصة التي كانت لديهم من قبل ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾؛ وهذا يعني القول: «إذا كَانَ هذا إسلاماً؛ فإنه ليس أكثر أو أقل مما نجده في كتبنا المنزلة» لاحظ جيداً، إِنَّ هذه الآية تعود إلى المرحلة المبكرة من رسالة مُحَمَّدٍ، وقبل الهجرة إلى يَثْرَب.

قارن الآية أعلاه مع الفقرات (7، 13، 15، 35)، والمقاطع الأخرى ذات الفحوى المشابه.

46. سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ (23 / 49 - 50).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ؛

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً، وَأَوْرَثْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ.

47. سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ (21 / 7).

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي⁽¹⁾ إِلَيْهِمْ؛ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾: العلماء بالتَّوْرَةِ والإنجيل... وهو جواب لقولهم هل هذا إلّا بشر مثلكم؛ يأمر بهم أَنْ يسألوا أهل الكتاب عن حال الرُّسل المتقدِّمة - (البَيْضَاوِي).

إِذَا، إِنَّ مُحَمَّدًا يَحْتَكِمُ إِلَى أَصْحَابِ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ، الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ، وهو فعلياً احتكم - تصديقاً لدعاويه وعقيدته - إلى الكُتُبِ نفسها كما كانت موجودة ومتداولة بين يَهُودَ وَمَسِيحِيَّ عصره. ما أبعد البونَ بين نبيِّ الإسلام وأتباعه في العصر الحالي! لقد قبل بجعل كُتُبِ الْعَهْدَيْنِ الْقَدِيمِ والجديد

(1) القراءة الثانية ﴿يُوحِي﴾ - (الجلالين).

المُقَدَّسَة أساساً لدعاويه، ودعائمه حينما كان يتعرَّض للهجوم؛ وبينما يقضي أتباعه أيامهم في محاولة غير تقيَّة لتهديم مرجعية تلك الكتب نفسها.

48. سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ (21 / 48 - 50).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ، وَضِيَاءً، وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ؛

الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ.

وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ؛ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ؟

لقد أطلق على كُتُب موسى اسم الْفُرْقَانَ (ذاك الذي يبيِّن الحق من الباطل)، وذكرت بلغة عالية الإطراء بوصفها نوراً يضيء درب المؤمنين، وتذكراً للمتقين، الذين يخشون الله، ويستشعرون خشية يوم الحساب. فلماذا إذاً، لا يقوم المسلمون الوريثون - الذين يتوقون للنعت الموصوف هنا - بدراسة هذا الكتاب المُقَدَّس، ويسعون لتنوير أنفسهم بقانونه الإلهي؟

لاحظ أن القرآن لا يتحدث بلغة أبلغ مدحاً بشأن الكتب الخمسة أكثر ممَّا في هذه الآية.

إن اسم الْفُرْقَانَ، يرد في القرآن على قدم المساواة بوصفه نعتاً مميزاً للقرآن نفسه، كما للكتب الخمسة.

إن مغزى العبارات هنا، كما في مكان آخر، يشير إلى كتاب قيد التداول، وكان محلَّ توقير وتقديس المؤمنين الحقيقيين كما كانت أرواحهم مضاعة بنوره. وهذا هو التقدير الذي كان يكتنه مؤلف القرآن.

49. سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ (21 / 105).

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ، مِن بَعْدِ الذِّكْرِ: «أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

﴿فِي الزُّبُورِ﴾ في كتاب دَاوُد، ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي التَّوْرَة - (البَيضَاوِي).
وآخرون يرون أنَّ مفردة ﴿الزُّبُورِ﴾ تعني الكتب المُقدَّسة بالعموم.

على أيِّ حال، إنَّ هذا هو استشهاد مباشر من العهد القديم. ونحن نجد في
المَزَامِير (29 / 37): «إِنَّ الصَّالِحِينَ سِيرَتُهُمْ الْأَرْضُ».

إنَّ التسليم بتنزيل المَزَامِير كما كانت موجودة، ومتداولة بين اليَهُود
والمَسِيحِيِّين، لهو وفقاً للمعنى الذي ورد ذكره في كُلِّ جزءٍ من القرآن بصدده
الكتاب المُقدَّس.

50. سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (2 / 17).

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ - أَلَّا تَتَّخِذُوا⁽¹⁾ مِنْ دُونِي
وَكِيلاً.

﴿الكتاب﴾: التَّوْرَة - (الجلالين).

51. سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (21 / 4، 5، 7).

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وَتَتَغَلَّبَنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا، بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ...
... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ...

﴿الكتاب﴾: التَّوْرَة - (الجلالين؛ البَيضَاوِي).

إنَّ المقطع يحيل إلى نبوءات محدَّدة في العهد القديم، تقول بأنَّ اليَهُودَ

(1) في قراءة ﴿يَتَّخِذُوا﴾.

سيقترفون فعلاً آثمًا، وسيخطئون بعتو بحق اللّه، في مناسبتين؛ وفي هاتين المناسبتين سوف يخبرون عقوبة خطاياهم؛ وقد قيل إنّ النبوة قد تحققت. ومن استمرار الموضوع في الآية (7)، فإنه يظهر أنّ الإشارة الضمنية تحيل إلى تدمير الهيكل مرتين: الأولى، في الأسر، والثانية من قبل تيتوس.

52. سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (17 / 55).

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا....

فان مع المقطع الواردة في الفقرة (49)، في سُورَةِ الْآنْيَاءِ (21 / 105)، حيث تم إيراد شاهد من هذه المزامير.

53. سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (17 / 101).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ....

﴿فاسأل﴾: يا مُحَمَّد - (الجلالين). هنا طلب اللّه من مُحَمَّد أن يرجع إلى بني إسرائيل لتصديق قصة المعجزات التسع التي أظهرها موسى إلى فرعون. ومثل هذه الشهادة ستكون بالطبع وفق ما في كتبهم المُقَدَّسة. وإن هذه الكتب إذ يُحال إليها، فإنها في الواقع برهان على صحة هذه الآية.

54. سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (17 / 107 - 109).

قُلْ: آمِنُوا بِهِ (الْقُرْآنَ) أَوْ لَا تُؤْمِنُوا؛ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (التنزيل الإلهي) مِنْ قَبْلِهِ، إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ، يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا

وَيَقُولُونَ: «سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا».

وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾: «وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وإمارة النبوة» - (البيضاوي). «وهم مؤمنو أهل الكتاب» - (الجلالين).

يَأْمُرُ اللَّهُ مُحَمَّدًا هُنَا أَنْ يَخْبَرَ كُفَّارَ مَكَّةَ بِأَنْ بَوَسَعَهُمْ «أَنْ يُؤْمِنُوا أَوْ لَا كَمَا يَشَاءُونَ». إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَادِرِينَ أَفْضَلَ عَلَى الْحُكْمِ، لِأَنَّهُمْ يَحُوزُونَ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ قَبْلِ، هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُرْآنِ، وَابْتَهَجُوا لِمَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارٍ بِوصفها تصديقاً لكتبهم المُقَدَّسَة.

إِنَّ هَذَا يَتطَابَقُ مَعَ الْمُلَاحَظَاتِ فِي الْفَقَرَاتِ السَّابِقَةِ (انظر: ف 7، 13، إلخ) فيما يتعلّق بالإقرار بالقرآن وعقائد الإسلام من جانب بعض من أهل الكتاب، نتيجةً لتطابقها مع محتويات كتبهم المُقَدَّسَة.

55. سُورَةُ النَّحْلِ (16 / 43-44).

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ؛ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.
(أرسلناهم) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ، لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

إِنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ مِنَ الْمَقْطَعِ أَعْلَاهُ يَتشَابَهُ مَعَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (21 / 7)؛ الْوَارِدَةِ فِي الْفَقْرَةِ (47).

وهي تحتوي، علاوة على ذلك، على إشارة إلى المعجزات الإلهية والكتب المُقَدَّسَة لِلْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ.

56. سُورَةُ الرَّعْدِ (13 / 36).

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ، يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ؛ وَمِنَ الْأَخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ

بَعْضُهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: لموافقته ما عندهم - (الجلالين)؛ وذلك بسبب مطابقتها لكتبهم المُقدَّسة الخاصة.

قارنها مع بعض الفقرات مثل: (7، 13، 15، الخ)، التي تحتكم إلى اليهود والمسيحيين، على أنهم شهود لموافقة القرآن لما في كتبهم المُقدَّسة الخاصة.

57. سُورَةُ الرُّعْدِ (13 / 43).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: «لَسْتَ مُرْسَلًا»؛ قُلْ: «كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ».

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: من مؤمني اليهود والنصارى - (الجلالين).

إنَّ المعنى مشابه لما في المقطع السابق. إنَّ شاهدَ مُحَمَّدٍ في مَكَّة كَانَ - كما يُزعم هنا - اللَّهُ نفسه وبعض اليهود والمسيحيين، الذين احتكم إليهم، وهم أصحاب معرفة بكتبهم المُقدَّسة المتصلة، لكي يدلوا بشهادة في صالح القرآن.

58. سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ (29 / 27).

وَوَهَبْنَا لَهُ (أَيَّ إِبْرَاهِيمَ) إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ. وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَیْسَ الصَّالِحِينَ.

﴿وَالْكِتَابِ﴾: «يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة» - (البيضاوي). ولدى الجلالين: «بمعنى الكتب، أي التَّوْرَةُ والإنجيل والزبور والقرآن».

كانت هذه الكتب الإلهية (حسب هذه الآية) محفوظة في ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ. ومغزى النص، وحسب المفسرين المُحمَّدیین، يعني أَنَّ الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ

موضع الذكر، هي العهدان القديم والجديد، وكانت محفوظة ونقلتها الأيدي من جيل إلى جيل بين سلالَةِ إِبْرَاهِيمَ.

59. سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ (29 / 46).

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا: «آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ؛ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

تُظهر الآيةُ الطريقة التي خاطب بها مُحَمَّدٌ آنذاك الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ؛ وهو إلى حدٍّ ما أسلوب امرئ يماثل نفسه مع ديانتهم الخاصّة، أكثر منه إنساناً مكلفاً بأن يحلَّ محلّهم. على أيِّ حال، إنّ ذلك يسمح لنا بفهم بعض الأسس التي كان من الطبيعي أن يتّهج عليها الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيُّونَ، لا بل «يكون فرحاً وعرفاناً» لدى اكتشافهم أن نبيَّ مَكَّةَ استعدَّ لتأكيد ومصادقة كتبهم المقدّسة في كلّ نقاطها الأساسيّة، وكان يهتّم بشكلٍ واضحٍ إصلاح مساوئ الأيقونة فحسب، وعبادة القدّيسين والملائكة، التي تخلّلت بينهم.

وعلاوة على ذلك، ليس ثمة برهان أقوى من هذا المقطع، يبيّن التوفير والإيمان المستشعر بهما والمعبرَ عنهما من قِبَل مُحَمَّدٍ نحو كتب الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ: «آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا، وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ؛ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

إنَّ مسلميَ زمنِ مُحَمَّدٍ والجيل اللاحق، كانوا سيفضحون ازدراءً للمناورة البائسة المُختلفة من جانب بعض مُحَمَّدِييّ العصر الحاضر، الذين يدّعون عدم وجود كتب خمسة وإنجيل قيد التداول العالميّ بين الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ، بل بعض الكتب المُختلفة، التي أشار إليها مُحَمَّدٌ. إنّ هذا الطرح أمرٌ لا مبرّر له إطلاقاً، وهو يتناقض معنى القرآن العام.

60. سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ (29 / 47).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (الْقُرْآنَ)، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.
وَمَنْ هُوَ لَا مِنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ.

متابعة للمقطع السابق.

﴿الْكِتَابَ﴾: التَّوْرَةُ - (الجلالين). ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم عبد الله بن سلام، وأحزابه؛ أو من تقدم عهد الرسول من أهل الكتابين - (البيضاوي).
﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾: الْقُرْآنَ كما أنزلنا إليهم التَّوْرَةَ وغيرها.

يعني هذا أَنَّ الْقُرْآنَ قد أُوْحِيَ به بنفس طريقة نزول الكتب السابقة. وكما أثبت أن صيغة وأسلوب الوحي عيناها، مثلما المصدر نفسه. وكان هدفُ الْقُرْآنِ - على الأقل الغاية العظمى - تصديق تلك الكتب المُقَدَّسة. لذلك، فَإِنَّ الْمُحَمَّدِيَّ، الذي يعتبر الْقُرْآنَ إلهيًّا، ملزمٌ بأن يرى الأمرَ عينه في الكتب المُقَدَّسة ويدرسها بتقير مشابه لما يديه نحو الْقُرْآنِ.

61. سُورَةُ الْأَعْرَافِ (7 / 156 - 157).

فَسَأَلْتُهَا (أَيَّ رَحْمَتِي) لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ؛

الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ - النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ - الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ....

إنَّ ذلك جاء في جوابِ مفترَضِ مُعْطَى من الله على صلاة موسى حينما كان الإسرائيليون يعبدون العجل؛ وهو يرد على أَنَّهُ إعلان نبويٍّ إلى موسى بشأن نبيٍّ أوشك على الظهور في الأيام الأخيرة. الآن، في هذه النبوة المُتَخَيَّلَة، فَإِنَّ اللَّهَ يُصَوِّرُ وهو يقول لقومه بأنهم سـ ﴿يَجِدُونَهُ (مُحَمَّدًا) مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ

في التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ». وحسب البَيضَاوِيِّ فَإِنَّهُمْ سيجلدونه «باسمه وصفاته».

بناءً على ذلك، فَإِنَّ الآية تتطابق مع آيات كثيرة سابقة، رُعم فيها أَنَّ الكُتُبَ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ، كما كانت في أيدي الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ آنذاك، تحتوي على برهان عقيدة ودعاوي مُحَمَّدٍ. وهو يعلن بوضوح أَنَّ الكُتُبَ الخمسة وَالْإِنْجِيلَ التي كانت متداولةً بين يَهُودَ وَمَسِيحِيَّيْ عَهْدِ مُحَمَّدٍ ﴿عِنْدَهُمْ﴾.

وفوق ذلك، فَإِنَّ اللَّهَ يَكَلِّمُ مُوسَى بشأن هذه الكُتُبِ على أَنَّها مصدر موثوق للمراجعة. إِذَا لَمِنَ الواضح هنا أَنَّ الكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ، كما هي بحوزة الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ عموماً في القرن السَّابع، كانت - حسب تعاليم الْقُرْآن - موثوقة، وأصيلة، وخالية من التحريف.

62. سُورَةُ الْأَعْرَافِ (7/ 159).

وَمِن قَوْمِ مُوسَى، أُمَّةٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ، وَبِهِ يَغْدُلُونَ.

لو قبلنا أَنَّ الفرضيَّةَ أُنشئت بشكلٍ متين، وَأَنَّ محاولةً جرت من قِبَلِ بعضِ الْيَهُودِ للتلاعب بكتبهم، ومحو بعض المقاطع التي تحتوي على الشهادة لِمُحَمَّدٍ، فهل يمكن لليَهُودِ الصَّادِقِينَ والمخلصين الذين أُشير إليهم في هذه الآية أَنْ يشاركوا في مثل هذه المحاولة، أو أَنْ يسمحوا بها؟ أَلَمْ يَكُنْ هؤلاء ليحافظوا، على الأقل، على النصِّ وينقلوا لذرِّيَّتِهِم المخطوطات غير المحرَّفة من كتب مُوسَى؟ وكما أَنَّ مُحَمَّداً احتكم إلى نبوءات محدَّدة مفترضة بشأنه، وشهادات إيجابية بحقِّ رسالته في هذه الكُتُبِ، أَلَمْ يَكُنْ يسعى هؤلاء الْيَهُودُ الأتقياء الذين اعتنقوا الإسلام إلى الحفاظ عليها بعناية وبورع، ولكانوا توارثوا ابناً عن أبٍ النسخ الصحيحة والأصيلة للتوراة مع هذه اليِّنات والنبوءات، بوصفها برهاناً أكبر قيمةً لدعاوي مُحَمَّدٍ، وتسويغاً مطلقاً لسلوكهم في الانفصال عن إخوانهم الْيَهُودَ واعتناقهم الإسلام. يقيناً لكانوا فعلوا، وإذَّ أَنَّهُمْ

لم يقوموا بمثل هذا العمل، فهذا يشير إلى أن إخوانهم لم يقتربوا محاولة تحريف أو محو؛ وأن النبوءات المفترضة بشأن مُحَمَّدٍ موجودة بالضبط تماماً كما في النسخ المحفوظة بأشد درجات العناية من قبل اليهود الذين لم يُسلموا، كما في نسخ الذين آمنوا الخاصة.

63. سُورَةُ الْأَعْرَافِ (7/ 167 - 169).

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَسْعَنَّ عَلَيْهِمْ (أي اليهود) إِلَى يَوْمِ الْفِتَاةِ مَنْ يَسُوهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ؛ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا؛ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ. وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ، وَالسَّيِّئَاتِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى، وَيَقُولُونَ: «سَيَغْفِرُ لَنَا». وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ، يَأْخُذُوهُ. أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ، أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ. وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

إن هذه الآيات تنزلت في يَثْرِبَ على الأرجح، عندما بدأ الخلاف ينشب بين مُحَمَّدٍ واليهود. وهي تحتوي على تهمة ضد اليهود بإساءة تقديم الحقيقة. لكنها تهمة لا تؤثر - على الأقل - على الحرص الشديد الذي احتفظوا فيه بكتبهم المقدسة: مثلما أنهم المسيحيون دائماً، وما زالوا إلى اليوم يهتمون بإساءة إعلان الحقيقة، رغم أنهم يعتبرون كتبهم المقدسة ضمناً أصيلة وغير محرفة.

ومن جهة أخرى، فإن الآيات تتضمن شهادة فعلية على «الكتاب» كما توارثوه؛ أي كما نقلته الأيدي من جيل إلى آخر بين اليهود.

علاوة على ذلك، اتهم اليهود بخرق ميثاق ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ (أي بأنهم لن يحرفوا الحقيقة)، ذلك أنهم ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أو تبعوه بمعناية، أو درسوه باجتهاد. ويُزعم أن ذنبهم تفاقم إذا جرّاء قراءة الكتب المنزلّة، ومعرفتهم الحقيقة التي يشّوهونها. إن النصّ إذاً هو شهادة على انتشار الكتب المقدّسة بين اليهود، كما ديمومة تداولها، ودراستها. إنها نفس الكتب التي صادق عليها مُحَمَّدٌ بشكل منتظم.

لاحظ ذكر النبوة المتعلقة بتبديد اليهود.

64. سُورَةُ الْأَعْرَافِ (7/ 169 - 170).

وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ؛ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ.

إن هذا المقطع استمرار للمقطع الذي أوردناه للتو في الفقرة (63). وهو موجه إلى اليهود، ولا يظهر وجود الكتاب المنزل متداولاً فيما بينهم فحسب، بل يحضّ الله فيه اليهود على التمسك ﴿بِالْكِتَابِ﴾؛ وعلاوة على ذلك، يفيد بأن الذين يقومون بذلك سيحصلون على ثواب كامل في الحياة الآخرة. بيد أنه لا يمكن أن يُقرّط قومٌ على أنهم ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ إلا إذا كان كتاباً أصيلاً وغير محرّف. ويضرب الجلالين مثلاً هنا هو عبد الله بن سلام بوصفه أحد اليهود الوريثين الذين يشير إليهم النصّ.

أين هي إذا الكتب التي يؤمر اليهود المهتدون بأن ﴿يُمَسِّكُوا بِهَا﴾، إن لم تكن تلك التي نُقلت من عهد مُحَمَّدٍ من جيل إلى جيل - بل حتّى قبل زمنه؟

65. سُورَةُ الْمُذْتَرِّ (74/ 30 - 31).

عَلَيْهَا (النار) تَسْعَةُ عَشَرَ؛

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً؛ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا،
لِيَسْتَفْتِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا؛ وَلَا يَزَنَّا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ.

هذه سورة مَكِّيَّة، إِلَّا أَنَّ من المعتقد أَنَّ النَّصَّ أُضِيفَ بعد هجرة مُحَمَّدٍ إِلَى
يَثْرَبَ.

إِنَّ الغموض يلفُّ هذا المقطع. لكن يبدو أَنَّهُ يشير إلى تطابق ما مُفترض بين
ما قيل هنا بشأن حُرَّاس النار، وما ورد حول نفس المسألة في كُتُب أصحاب
الْكِتَاب؛ هذا التطابق الذي يُعتبر بالنسبة للذين يملكون الكُتُب، وللمؤمنين
الصادقين قاعدة للإيمان. وعلى هذا يقول البَيْضاوي: «ليكتسبوا اليقين بنبوة
مُحَمَّدٍ وصدق القرآنِ لَمَّا رَأَوْا ذلك موافقاً لِمَا في كتابهم».

وهذا التفسير يتساق مع المقاطع السابقة، التي تحمل المعنى ذاته،
والمُستشهد بها من قبل.

القسم الثاني

الآيات من السور المنزلة في يَثْرِبَ

رغم أن الآيات المُستشهد بها في القسم الأول واردة كلها في السور التي تُدعى مَكِّيَّة، بسبب محتوياتها، وهي سور كانت قد نزلت بالفعل في مَكَّة، مع بعض الاستثناءات، إذ أن قليلاً من الفقرات كانت تعود بشكل لا لبس فيه إلى عهد لاحق، العهد المدني، وكان يتوجب إضافتها إلى السور التي تحتل مقامها الآن، بعد هجرة مُحَمَّدٍ من مَكَّة. بيد أن النصوص الواردة في القسم الثاني هي، بدون استثناء، تقتصر على الأخير، أو على عهد المدينة.

في القسم الختامي من كتابنا سنقدم عرضاً موجزاً لكيفية نشوب العداوة بين يَهُودِ يَثْرِبَ ومُحَمَّدٍ، ولكن علينا ونحن نقرأ النصوص التالية وضع هذه القضية أمام ناظرينا.

66. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2 / 1 - 5).

الم

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ؛

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ؛

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾: أي التَّوْرَةَ والإنجِيلَ وغيرهما - (الجلالين).

لاحظ أن «المُفْلِحِينَ» والذين «عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» هم، حسب المقطع، لا مَنْ يَوْمَنُونَ بِالْقُرْآنِ فحسب، بل أيضاً بالكُتُب التي نزلت قبل القرآن. وما يدعوننا للدهشة، أن هذه الآيات المدونة في الصفحة الافتتاحية للوحي، تجعل المسلمين يبدون في حالة تناقض؛ إذ أنهم يُحججون عن درس الكُتُب المُشار إليها هنا، ولا يتشققون بمحتوياتها، ولا يتبعون وصاياها المُقدَّسة. ألم تصبح أعين هؤلاء القوم عمياء، وقلوبهم قاسية؟

67. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 40 - 42).

يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ! اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي، أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، وَإِلَيَّ فَارْجِعُونَ،

وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ؛ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِلَيَّ فَاتَّقُونَ؛

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾: أي التَّوْرَةَ - (الجلالين).

يتابع القرآن في يَتْرَبْ، تماماً كما في السور المَكِّيَّة، تصديق حقيقة الكتاب الذي بين يدي بني إِسْرَآئِيلَ. بيد أن هؤلاء لن يدلوا بتلك الشهادة التي كان يرغب مُحَمَّدٌ أَنْ يَقْدُمُوهَا لصالحه، وكان يؤمن، على الأرجح، بأن عليهم أَنْ يبروزوا. لذلك فإنه يحذرهم من تحريف الحقيقة، أو إخفاء أي جزء منها.

إِنَّ الْمَسِيحِيَّينَ، على نفس الأسس، يتهمون اليهود بإساءة تفسير كُتُبهم،

وعدم الإقرار بنبوءات المسيح كما تحققت في يسوع، رغم أنهم، مثل اليهود، يؤمنون بشكلٍ كاملٍ بالكتب اليهودية. وأنه لاثهام قريب ومماثل للاثهام في النص.

إن عبارة «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا» ترد مراراً وتكراراً في معنى مشابه بشأن آخرين غير اليهود، انظر على سبيل المثال: (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 16 / 2؛ سُورَةُ آلِ هِمْزَانَ: 3 / 77؛ سُورَةُ التَّوْبَةِ: 9 / 9؛ سُورَةُ النُّحْلِ: 16 / 95).

68. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2 / 53).

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

﴿الْكِتَابُ﴾: التَّوْرَةُ - (البَيضَاوِيُّ، والجلالين).

إن الكتب الخمسة تُسمى فُرْقَانًا، وهو المصطلح عنه الذي يرد بخصوص القرآن نفسه. انظر الفقرة (48).

69. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2 / 75).

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ؛ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

إن الكلام يخص هنا بني إسرائيل. «أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ»: أي اليهود - (الجلالين). «يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ»: يعني التَّوْرَةُ - (البَيضَاوِيُّ). «ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ»: كعنت مُحَمَّدُ آيَةِ الرِّجَم، أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون - (البَيضَاوِيُّ). إن التفسير الأخير لهو طبعي، ومؤلف من ملاحظات أخرى موجودة في القرآن بشأن مسلك اليهود، والشهادة هناك من البداية إلى النهاية لصالح الكتب اليهودية كما المسيحية، وإن الأخذ بهذا التفسير هو الأمر المناسب بشكلٍ جلي.

إِنَّ المَقْطَع يَعْنِي: «مَاذَا أَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَعْتَنِقَ الْيَهُودَ الْحَقَّ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّهُمْ سَمِعُوا حَقِيقَةَ كَلِمَةِ اللَّهِ كَمَا جَاءَتْ فِي كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ الْخَاصَّةِ، وَقَامُوا بِتَحْرِيفِهَا قَصْداً؟ كَيْفَ تَأْمَلُونَ النِّجَاحَ مَعَ رِجَالٍ أَبْرَزُوا بِأَنْفُسِهِمُ الْبِرْهَانَ ضِدَّ كَلِمَةِ اللَّهِ؟ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَرَأُوا كَلِمَةَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَبَارَادَتِهِمْ حَرْفُوا مَعْنَاهُ، (فَسَرَوْهَا كَمَا يَشَاؤُونَ). هَلْ كَلِمَةُ اللَّهِ، كَمَا عَلَّمَكُمْ إِيَّاهَا الْقُرْآنُ، تَمْلِكُ أَيَّ تَأْثِيرٍ أَكْبَرَ عَلَيْهِمْ؟».

إِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ نَفْسَهَا تَقْرِيباً الَّتِي يُمْكِنُ لِمَسِيحِيٍّ يَوْمَنَا الْحَاضِرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيهَا بِشَأْنِ الْيَهُودِ؛ وَهَكَذَا، «لَقَدْ قَامُوا بِإِسَاءَةٍ اسْتِعْمَالٍ وَتَحْرِيفٍ كَلِمَةِ اللَّهِ كَمَا هِيَ مَدُونَةٌ فِي كِتَابِهِمُ الْخَاصَّةِ، وَالَّتِي كَانَ يَجِبُ أَنْ تَقُودَهُمْ لِلْإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ؛ وَإِذَا قَامُوا بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَمَلِ فِي كَسْبِهِمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ، عِبْرَ الْإِحْتِكَامِ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ الْأُخْرَى كَمَا جَاءَتْ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ». وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ لَا يَقْرَءُونَ وَيُؤْمِنُونَ أَقَلَّ بِالْكِتَابِ الْيَهُودِيَّةِ.

هَلْ نَمَّةُ شَهَادَةِ أَكْثَرِ كَمَا لَا مَمَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِصَدَدِ الْأَصْلِ الْإِلَهِيِّ وَمَوْثِقِيَّةِ الْكِتَابِ الْمَتَدَاوِلَةِ بَيْنَ الْيَهُودِ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ، وَالَّتِي تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا الصِّفَةُ الْمُقَدَّسَةُ «كَلَامَ اللَّهِ»! لِمَاذَا الْقُرْآنُ مَنْشَأً مِنْ قِبَلِ الْمُحَمَّدِيِّينَ؟ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ لَأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ «كَلَامَ اللَّهِ». أَلَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمْ إِذَا أَنْ يَوْقُرُوا «كَلَامَ اللَّهِ» الَّذِي سَبَقَ الْقُرْآنُ؟

70. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 76-77).

وَإِذَا لَقُوا (يَهُودَ الْمَدِينَةِ) الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا: «آمَنَّا»؛ وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالُوا: «أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ؟

متابعة للآية السابقة. ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾: بما بين لكم في التوراة من نعت مُحَمَّدٍ - (الْبَيْضَاوِيُّ؛ كذلك الجلالين). أو بعبارة أخرى: «لماذا تعلمونهم بعض المقاطع من العهد القديم، والتي يمكن أن تنقلب ضدكم أثناء محاجّتهم للإسلام؟» وَيُصَوِّرُ فَرِيقٌ مِنَ الْيَهُودِ يَلُومُ الْآخَرَ، لِتَعْرِيفِهِمْ مُحَمَّدًا وَأَتْبَاعَهُ بِنُصُوصٍ مِنْ كِتَابِهِمْ، وَالتِّي بَوَسَّعَ الْمُسْلِمِينَ اسْتِعْمَالَهَا لِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِالْيَهُودِ.

71. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2 / 78).

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ، لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ، إِلَّا أَمَانِيٍّ؛ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

هذه الآية استمرار للآيات السابقة. إِنَّ المجموعة الثانية من معارضي مُحَمَّدٍ والإسلام يُوصِفُونَ هُنَا بِيَهُودٍ أُمِّيِينَ؛ أَيُّ أَنَا لَا عِلْمَ لَهُمْ حَقِيقًا بِكِتَابِهِمْ. فهم يعلمون بالكاد التفسيرات والقصص الخبرية، والتقاليد السخيفة. إِنَّ مناقشات أمثال هؤلاء القوم لم يكن لها شأن.

72. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2 / 79).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: «هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ! إِنَّهَا متابعة إضافية للفقرة السابقة.

إِنَّ السياق السابق يشير إلى الأشخاص الأُمِّيِّين الذين كانوا يعرفون الشروح فحسب أو التقاليد الباطلة. ويبدو أنهم الأشخاص عينهم الذين أُشير إليهم هنا بأنهم يَفْصِلُونَ مثل هذه الشروح أو التقاليد، ومن ثَمَّ يعرضونها أمام مُحَمَّدٍ على أنها تكتسي موثوقية إلهية، قائلين بأنها كانت ملزمة مثل الكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ نفسها.

ليس حتماً أنَّ «الكتاب» يعني الكُتُب اليَهُودِيَّة. من ناحية ثانية، فإنّه يمكن أن يؤخذ هنا بوصفه «الكتاب» ذا الأهمية؛ أي، الذي يرغب هؤلاء اليهود الأميون بأن يحسبوه كتاباً مقدّساً، أو ما يشابهه في مصداقيته.

يصف النصّ إذاً مجموعة من اليهود الأميين الذين عارضوا مُحَمَّدًا؛ أي، أولئك الذين كتبوا المقاطع على الأغلب من تقاليدهم وشروحاتها، أو من كُتُبهم الخَبَرِيَّة، وأبرزوها على أنّها موثوقة وإلهية؛ ومثال على مثل هذه الشروح: «أنّه ليس فرضاً رجم البالغ حسب القانون الموسوي»؛ أو إعطاء تفسير آخر لنصوص العهد القديم التي رأى فيها تابعو مُحَمَّد أنّها توافق دعاويه بأنّ نبياً حانّ خروجه. لذلك، فإنّ مُحَمَّدًا لعنهم بسبب صياغتهم لِمَا كان بشرياً في أصله، ومن ثمّ تقديمه على أنّ له مرجعيّة إلهيّة.

وعلى ذلك، فإنّ عبد القادر، مترجم القرآن للأوردو، في تعليقه على الآية، يكتب: «إنّ هؤلاء أتباعاً لأهوائهم، يضعون الأشياء سويّة، ويصوغونها لعموم الناس، ومن ثمّ يعزونها لله أو النبي»⁽¹⁾.

ويشرح البيضاويّ المقطع على النحو التالي: «ولعلّه أراد بما كتبه من التأويلات الزائفة»⁽²⁾. إذاً، هنا كانت الإشارة إلى المصدر المنحرف، إمّا فطرياً، أو عرضياً، في المثال الحاليّ، الذي تمسّك به اليهود أعداء مُحَمَّد، والمتصل

(1) يبه وه لوك هين جو عوام كو أنكي خوشي موافق باتين جور كر لكهه ديني هين اور نسبت كرتي هين طرف خداكي يا رسول كي.

(2) يشير البيضاويّ إلى اختلاف في الرأي بين مُحَمَّد ويَهُود يثرب، فيما يتعلّق بعقوبة الزنى؛ إذ زعمَ مُحَمَّد بأنّ العقوبة هي الرجم حسب الشريعة الموسويّة، بينما تمسّك اليهود بأنّ قانونهم لا يشترط عقوبة الرجم على الزنى. ومن الممكن أنّه وُجد شرح خَبَرِيّ بصدد الموضوع، قدّم اليهود نسخةً منه يُزعم أنّها موثوقة، وحكم إلهي في المسألة، وهو ما يشير إليه مُحَمَّد في الآية.

بآراء وشروحات علمائهم. وليس ثمة ما يمكن أن يسوّغ فعلاً الإشارة إلى أيّ تلاعب، أو إقحام في مخطوطات الكتب المقدّسة. لقد عرّف اليهود في كلّ العصور بأنهم شديدو التدقيق، بل حتّى أنّهم يحافظون بطريقة وسواسيّة على كتبهم المقدّسة، مثل عناية المحمّديّين أنفسهم بالقرآن. إنّ خلقهم بهذا الشأن ليس موضع ضعف، ولا يلوح أنّ محمّداً كان يريد الطعن فيه، عبر اتهام بعيد للغاية يفيد بأنهم قدّموا تفسير علمائهم أو تقاليدهم الحبريّة، أو مقتطفات منسوخة منها، وزعموا أنّ لها نفس السلطة التي للكتب المقدّسة. إنّ اليهود أعطوا وزناً مفرطاً، كما في سحيق القدم، إلى الأقوال غير المنزلة لأجبارهم، وهي لا تتضمّن أيّ خللٍ بتقدير، أو أيّ نقصٍ بعناية، الكتب المنزلة نفسها.

إنّ ذلك، إذا، ادّعاء لا مسوّغ له، لأنّ اليهود نسخوا ما كان مجرد مصنّفات بشرية فحسب، ومن ثمّ أبرزوها لمحمّد على أنّ لها مرجعيّة إلهيّة، فبأيّ شكل عبثوا بالكتاب المقدّس؟ هل ذهبوا حتّى أبعد من ذلك، وقاموا بكتابة مقاطع مُخلّقة، وادّعوا بشكل احتياليّ في النقاش أنّها كانت مقتطفات من الكتب الخمسة (رغم أنّ مثل هذا المعنى للنصّ ليس طبعيّاً)؟ إنّ الأمر لم يبلغ حتّى مثل هذا الاتهام، ولم يتضمّن، بأيّ شكل، أنّهم غيّروا أو أقحموا مخطّطات كتابهم المقدّس. إنّ الاتهام سيكون في هذه الحالة مماثلاً لما سيأتي في الفقرة (96) حيث «يلوون السّبتهم»⁽¹⁾ أو يتلون بأسلوب مضلّل، حيث جُعِلت المقاطع تبدو أنّها تعود للكتب المقدّسة، التي ليست في الواقع كذلك. بيد أنّ تلك التهمة، مثل الحاليّة، هي تهمة مختلفة كليّاً عن تحريف مخطوطات العهد القديم.

(1) [الإشارة إلى سورة النساء (4/ 46)، م.]

لاحظ، أولاً:

إنَّ التهمة موجَّهة إلى يَهُودِ يَثْرِبَ فحسب. ومهما كانَ مداها، فَإِنَّهَا لَا تعداهم. وعلى سبيل المثال، ليس هناك مثل هذه التهمة، في أيِّ آيةٍ في القرآن أشارت إلى المَسِيحِيِّينَ، أو كتبهم المُقَدَّسة.

لاحظ، ثانياً:

إنَّ التهمة، ومهما كانت، لا تؤثرُ على إيمانِ مُحَمَّدٍ بِأَصَالَةِ ونقاءِ العهد القديم كما كان موجوداً آنذاك، وكما كانَ متداولاً بينَ يَهُودِ يَثْرِبَ. وإنَّ هذا بَيِّنٌ من معنى جميع المقاطع اللاحقة التي تحدَّثت عن قيمة ومرجعية الكتب المُقَدَّسة بوصفها ساميةً، وتامةً، في عبارات ليست موضع شكٍّ كما من قبل.

73. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 85).

أَفْتَرَمُونَ بِيَغْضِ الْكِتَابِ، وَتَكْفُرُونَ بِيَغْضِ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ.

ما زال الاتهام موجَّهاً إلى يَهُودِ يَثْرِبَ. وقيل إنَّ التهمة في هذه الآية ترتبط بالتالي:

إنَّ بني النَّضِيرِ وبني قُرَيْظَةَ الْقَبِيلَتَيْنِ الْيَهُودِيَّتَيْنِ اللتين انحازتا على التوالي إلى الفريقين المتعادين في يَثْرِبَ،⁽¹⁾ لم تتردداً (قبل قدوم مُحَمَّدٍ المدينة) بالقتال ضدَّ بعضهما بعضاً، وقتل ونفي إحداهما الأخرى من موطنها؛ لكنهما رفضتا بكلِّ إصرارٍ استبقاء أيِّ يَهُودِيٍّ يقع أسيراً في أيديهم، لأنهم قالوا إنَّ ذلك محرَّمٌ في شريعتهم. في الآية التي تسبق النصَّ، فإنَّ مُحَمَّدًا يُوَيْخُهُم، قائلاً بأنَّ قَتْلَ ونفي بعضهم بعضاً، كان في كتبهم المُقَدَّسة محرَّماً بالتساوي مع

(1) [كان بنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، بنو النَّضِيرِ حلفاء الخزرج، م.]

أخذ بعضهم بعضاً أسرى. ومن ثم يتلوها المقطع: ﴿أَتَقْرَأُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟﴾. أي، «ينبغي عليكم أن تؤمنوا بكامل كتابكم المنزل وبكل شروطه. ليس بوسعكم اختيار الالتزام ببعض الوصايا، بينما تتجاهلون الأخرى. كل من يؤمن ويطيع جزءاً فحسب، وينكر أو يتجاهل الباقي، سيصيبه خزي في العالم الحاضر، ويعيش أشد العذاب في الآخرة. إنَّ الْكِتَابَ بأكمله إلهي، وجليد بالاعتماد؛ وكلُّ أمرٍ من أوامره ملزم لكم على قدم المساواة».

ما هو البرهان الأكثر حسماً الذي يمكن أن يُرغَبَ به من القرآن على موثوقيته وأصالة العهد القديم، بدون أي استثناء لكل جزء منه، كاملاً وسالماً، كما وجد بأيدي اليهود في زمن مُحَمَّد؟

74. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 87).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، الْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.

﴿الْكِتَابُ﴾: أي التَّوْرَةُ (الكتب الخمسة) - (الجلالين والبيضاوي).

75. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 89).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ (أي القرآن) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (الكتب)، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا؛ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا، كَفَرُوا بِهِ؛ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

ما زال الخطاب موجهاً إلى يَهُودِ يَثْرِبَ. إنَّ الْقُرْآنَ، كالعادة، يقول عن نفسه أنه تصديق ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي التَّوْرَةُ - (الجلالين والبيضاوي).

من المفترض أن مُحَمَّدًا في هذه الآية يلمح إلى الطريقة التي كان يَهُودُ يَثْرِبَ يخاطبون وثنيي مدينتهم قبل مجيئه، قائلين لهم بأنه لدى ظهور مخلصهم

سيكونون الغالبيين؛ وكانوا يتهللون من أجل التعجيل بحلول ذلك الزمن. وكان مُحَمَّدٌ يحسب أنه هو الشخص ذاته الذي كانوا يصلون من أجل قدومه، وقال بأنهم رغم معرفتهم أن القرآن هو الشيء الذي طالما تشوقوا له، وأنه قد جاء الآن، إلا أنهم رفضوه عن عملي.

إن هذه الآية تنتمي لنفس المقاطع الواردة في الفقرات: (7، 13، 15، إلخ).

76. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 91).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: «آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ»؛ قَالُوا: «نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا»؛ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ.

عندما دعاهم مُحَمَّدٌ إلى الإيمان بكل الكتب المنزلة، فإن اليهود أجابوا بأنهم يؤمنون بالكتاب المنزل إليهم فقط؛ ويكفرون بكل ما تبعه، أي الإنجيل والقرآن. ومع ذلك، يقول مُحَمَّدٌ، بأنهم ما كفروا به - أي القرآن - هو الحق، وأنه يصدق تنزيل وموثوقية الكتاب اليهودي.

إن الكتاب اليهودي، الذي في أيدي يهود ذلك الزمان «لَمَا مَعَهُمْ» هو بالتالي مؤكد ومُصادق عليه في القرآن.

77. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 92).

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ؛ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ.

تروي هذه الآية قصة عبادة العجل الذهبي من قبل بني إسرائيل، وتبعتها رواية تسليم الشريعة على جبل سيناء.

78. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 97).

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ، بِإِذْنِ اللَّهِ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَذِيهِ، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: قبله من الكتب - (الجلالين).

يؤكد القرآن بشكلٍ منتظم، ولدى كلِّ مرحلة، الكتب المقدَّسة التي تنزلت قبله، كما كانت موجودة آنذاك بأيدي اليهود والمسيحيين.

79. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 101).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ (الكتب)، بَدَأَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

﴿رَسُولٌ﴾: المسيح أو مُحَمَّد - (البَيضاوي). مُحَمَّد - (الجلالين). وإنَّه لأمر ظاهر أنَّ المعنى مُحَمَّدًا.

﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾: أي التَّوْرَة - (الجلالين والبَيضاوي).

جاء مُحَمَّدٌ إلى اليهود، مُصَدِّقًا لكتبهم ومؤكدًا أنَّه النَّبِيُّ الذي أُخْبِرَ عن مجيئه فيها. ومع ذلك رفضه اليهود، وهذا هو معنى العبارة ﴿بَدَأَ... كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

إنَّ النصَّ يحتوي على شهادة مباشرة لا لبس فيها حول الأصل الإلهي وموثوقيَّة ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾، العهد القديم كما كان موجوداً بين أيدي اليهود.

80. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 113).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ: «لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ»؛ وَقَالَتِ النَّصَارَى: «لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ»؛ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ زمن حاضر أو ماضي، أي «يتلون الآن»، أو «كانوا يتلونونه».

و﴿الْكِتَاب﴾ يعني هنا العهدَيْن القديم والجديد، اللذين كانا قيد التداول بين الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ، وقد وَرَدَ ذكرهما في مكان آخر على أَنَّ الْقُرْآنَ جاءَ مُصَدِّقًا لهما.

81. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 136).

قُولُوا: «أَمَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالْأَسْبَاطِ؛ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

ليس ضروريًا تحديد ما يعني بقوله: «وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ». من المُحتمل أَنَّهُ يفيد الوحي المنزل إليهم أو المتعلق بهم، كما هو مدوَّن في كتب مُوسَى. وعلى أيِّ حالٍ، من الملاحظ أَنَّ التعبير المُستعمل عند الإشارة إلى الآباء «وَمَا أُنْزِلَ»، يختلف عن المصطلح المطبَّق على الْكُتُبِ والتي هي «وَمَا أُوتِيَ» والمتَّصلة بالأنبياء «وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ». إِنَّ مفردة «وَمَا أُوتِيَ» ترد بشأن الْكِتَابِ، الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أو الوحي، وتُحال إلى الْكُتُبِ، التي يدور الكلام عنها بوصفها معطاة أو منزلة، بينما المصطلح السابق «أُنْزِلَ» يُشير إلى الإلهام، أو الوحي للإنسان من قبل مشيئة اللّهِ، وهو ما قد يُدوَّن أو لا.

تتابع الآية بإعلان مهمٍّ بصدد ضرورة الإيمان بما «أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ»، على قدم المساواة مع الْقُرْآنَ «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ»؛ وإجلال وتوقير واتباع جميع الْكُتُبِ، لأنَّها كُلُّها، حسب الْقُرْآنَ، تساوى مع كلمة اللّهِ. إذا، لماذا يتجاهل هؤلاء الذين يؤمنون بِالْقُرْآنِ هذه الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةَ، القاعدة التي غرسها نبِيُّهم على أَنَّها شرط الإسلام الذي لا غنى عنه.

82. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 140).

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالْأَسْبَاطَ، كَانُوا
هُودًا أَوْ نَصَارَى؛ قُلْ: «أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ؟» وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ
اللَّهِ؛ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ.. الخ»: «أي لا أحد أظلم منه، وهم اليهود كتموا
شهادة الله في التَّوْرَةِ لإِبْرَاهِيمَ بِالْحَنِيفِيَّةِ» - (الجلالين). يقينا، إن الآية تعني أن
اليهود أصروا بشكل متعصب بأن إِبْرَاهِيمَ كان يهوديًا، ورفضوا الحقيقة الكبيرة
أن إِبْرَاهِيمَ ينتمي إلى الإسلام الحنيف، وعمليًا يخفون الشهادة التي اتتمنها
اللَّهُ إليهم؛ تمامًا كما يقول الْمَسِيحِيُّونَ إلى اليوم بأن اليهود يكتُمون - لأنهم
يحرِّفون، أو يرفضون الاعتراف - شهادة العهد القديم للمسيحية.

إنَّ يَهُودَ زمنِ مُحَمَّدٍ، مثل إخوانهم في العصر الحاضر، لن يسلّموا بفكرة
الإيمان الواسع أو الموسع، والتي أفضت إليها اليهودية طبيعيًا. ولن يقرّوا
بتفسير المقاطع في كتابهم التي يُزعم أنها تشير إلى المسيحية أو الإسلام. ولن
يعترفوا أو يسلّموا بها. وعلى هذا فإنَّهم «يكتُمون شهادة نزلت عليهم من الله».

لا يوجد هنا أي إشارة إما إلى تحريف، أو إلى أي نوع من التلاعب بالكتب
المُقدَّسة، من قِبَل اليهود. بل على العكس، فإنَّ المقطع يتضمَّن ثناءً كبيراً على
الأصل الإلهي، وأصالة، ونقاء الكتب المُقدَّسة، كما هي في الواقع بأيدي يهود
ذلك الوقت، بوصفها «شهادة عندهم من الله».

83. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 144 - 145).

فَذَرْنِي يَنْفَعُكَ فِي السَّمَاءِ؛ فَلَنُلَاقِيَنَّكَ قَبْلَةَ تَرْجَاها. قَوْلٌ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (فِي مَكَّةَ)؛ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ، فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ. وَإِنْ

الذين أَوْثُوا الْكِتَابَ، لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ، بِكُلِّ آيَةٍ، مَا تَبْعُوا فِئْتِكَ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ فِئَتِهِمْ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ فِئَلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

سواءً أكانَ الْيَهُودُ يُصَوِّرُونَ هنا على أنهم «يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» - (حسب الجلالين)، والمقصود المصادقة الإلهية على تحويل القبلة إلى الكعبة في مكة؛ أو - وهو أكثر ترجيحاً - وحي ورسالة مُحَمَّد بالعموم، فإن الآية تؤكد معنى المقاطع السابقة؛ لا سيما أنَّ مُحَمَّدًا يشير إلى الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ على أنها تحتوي شهادة له ولرسلاته، والتي يرفض الْيَهُودُ الاعتراف بها رغم معرفتهم بها.

84. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 146).

الذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ؛ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيْسَ يُعْلَمُونَ الْحَقُّ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾: أي مُحَمَّد أو القرآن - (البيضاوي).

إنَّ الإشارة، كما في النص السابق، إلى ما يُزعم أنَّ الْيَهُودَ يعرفون أنَّ مُحَمَّدًا والقرآن يواصلان النَّذْرَ النَّبَوِيَّ في كتبهم؛ وهو الأمر الذي لن يقرؤا به على أيِّ حالٍ نتيجةً للحسد والحقد.

85. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 159 - 160).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ؛

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا، وَيَتَذَكَّرُوا: فَأُولَئِكَ آتَوْبٌ عَلَيْهِمْ؛ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

إنَّ مناسبة نزول هذا الشاهد، وحسب ابن إسحق (كما أورده ابن هشام في سيرته النبوية)، هو:

«كتمانهم ما في التَّوْرَةِ من الحقِّ. وسأل مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أخو بني سلمة، وسعدُ بن معاذ، أخو بني عبد الأشهل، وخارجةُ بن زيد، أخو بلحارث بن الخزرج، نفرًا من أجباز اليهود عن بعض ما في التَّوْرَةِ، فكتموهم إياه، وأبوا أَنْ يُخْبِرُوهم عنه. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾»⁽¹⁾.

يُطعن بِالْيَهُودِ مجدِّداً، وليس بسبب التلاعب بكتبهم، بل ببساطة لأنهم لا يمثلون لطلب مُحَمَّدٍ وأتباعه بتقديم الشواهد من كتبهم، التي يُفترض أنها في صالح دعاوي مُحَمَّدٍ، أو مبادئ الإسلام. إنَّ رفض الاستجابة لمثل هذا المطلب يلقي توبيخاً على أنه «كتمان ما أنزل الله عليهم من البَيِّنَاتِ وَالْهُدَى». وقد لُعِنوا لامتناعهم عن نشر الحقيقة. إنَّ ذلك هو الحد الأقصى من الاتهام. وليس ثمة أقلُّ تهمة ضدَّ التعاطي الدقيق والتبجيلي من قبل اليهود مع وثائقهم، أو نسخهم من العهد القديم.

لاحظ الشهادة المُدلى بها للكتاب الذي كان موجوداً بأيدي اليهود آنذاك؛ وقد وُصف بالقول: ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾.

86. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 174 - 176).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ كَمًا قَلِيلًا؛ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ، وَلَا يَكَلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ؛ وَلَهُمْ

(1) [السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ

شليبي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، د. ت، المجلد 1، ص 551، م.]

عَذَابٍ أَلِيمٍ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاةَ بِالْهُدَى، وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ؛ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ؛ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

تكرار للفكرة المُعبر عنها في المقطع السابق. لقد اتهم اليهود برفض نشر الشهادات المزعومة في صالح مُحَمَّدٍ والإسلام الموجودة في كتابهم بسبب مصلحة زائلة (أي، تجنب غضب قومهم، خسارة الاعتبار القومي، الخ).

إنَّ مفردة «الْكِتَاب» الثانية في النص، يمكن أن تشير إمَّا إلى القرآن أو إلى الْكِتَابِ الْمُقَدَّس. فإذا ما كانت الإشارة للأخير، فإنَّ النقاشات قد تعني أَنَّ الْيَهُودَ يتباينون بالرأي بشأن المعنى الصحيح للمقاطع المكتومة؛ فأولئك الذين اعتنقوا الإسلام يدافعون على أَنَّها أشارت إلى مُحَمَّد، والذين بقوا يَهُوداً رفضوا الإقرار بأنَّ لديهم أيُّ إشارة من هذا النوع؛ إنَّ مثل هذا الرفض القائم، هو، في الواقع جوهر اتِّهام مُحَمَّد.

87. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 213).

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ، وَمُنذِرِينَ؛ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ؛ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ؛ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

88. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 253).

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

دَرَجَاتٍ. وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ، مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ تَعْدِهِمْ مَنْ تَعِدُ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْتَاتُ. وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا. فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

إنّ هذين المقطعين كما يبدو لا يتطلّبان أيّ تعليلي.

89. سُورَةُ الْبَقَرَةِ (2/ 285).

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ؛ لَا تَفَرُّقٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

إنّ «الْكِتَابَ» التي كَانَ يُؤْمِنُ بِهَا كُلٌّ مِنْ مُحَمَّدٍ وَاتِّبَاعِهِ بِأَنَّهَا مَسَاوِيَةٌ لِلْقُرْآنِ، كانت الْكِتَابُ الْمُقَدَّسَةُ المنزلة - كتب العهدين القديم والجديد، وأشير إليها غالباً كما كانت بأيدي الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ.

90. سُورَةُ الْحَدِيدِ (57/ 19).

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَرُسُلِهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.

إنّ حظوةَ اللَّهِ، والوعد بالمكافأة السماوية، يوعد بها الذين يؤمنون، لا في الْقُرْآنِ فحسب، بل عند رُسلِ اللَّهِ بالعموم، أي، في كُتُبِهِم المنزلة وتعاليمهم؛ بينما في الجانب الآخر، فإنّ الجحيم عاقبة الذين يكفرون، ويشكّكون في صدق تلك الْكِتَابِ.

وحسب النصّ، فإنّ العقاب المرعب ينزل على أولئك الْمُحَمَّدِيِّينَ، الذين إذ يقبلون الْقُرْآنَ، «يكفرون ويكذبون» بالأنبياء والرسل السابقين، عبر رفض وحيهم، و﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

91. سُورَةُ الْحَلِيدِ (57/ 25 - 28).

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ؛ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ، وَالْمِيزَانَ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ؛ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ؛ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ، وَالْكِتَابَ؛ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا؛ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ؛ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً؛ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا - مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ - إِلَّا آيَتُهُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا. فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ؛ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

﴿الْكِتَابَ﴾: الكتب المنزلة - (الجلالين). وقد وضعها الله في ذُرِّيَّتِي نُوح وإِبْرَاهِيمَ؛ بمعنى أنها استودعت لدى الإسرائيليين، سلالة إِبْرَاهِيمَ، وتناقلوها فيما بينهم من جيل إلى آخر.

في هذه النصِّ قُرْطُ معلمو الديانة المَسيحية في زمنِ مُحَمَّدٍ على لطفهم وإنسانيتهم. لقد وضعَ اللهُ في قلوبهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾. وفي الجملة الختامية، حُضُّ هؤلاء المَسيحيِّين، وربُّما اليهود أيضاً، «المؤمنون»، على خشية الله، وعلى الإيمان برسوله؛ وفي هذه الحالة فإنهم يوعدون ﴿كِفْلَيْنِ⁽¹⁾﴾ من الرحمة والسعادات الروحية. ولا بدَّ أنَّ هذا الوعد فرض على المؤمن بالقرآن

(1) [كِفْلَيْنِ: ضعفين. م.]

أن ينظر إلى كل هؤلاء اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام على أنهم صالحون. إن وجود عدد وفير منهم أيام مُحَمَّدٍ من وقائع التاريخ. وقد أوتي أولئك إذا السعادة المضاعفة، ووعدوا بأن يُجعل لهم ﴿نُورًا﴾ يمشون بهدياته. وعلى هذا فإن نفس الحجّة قابلة للتطبيق في الفقرة (62). إن أمثال هؤلاء المهتدين كانوا سيحفظون، ولا بدّ، بعناية تلك الكتب من العهدين القديم والجديد، والتي احتكم إليها مُحَمَّدٌ على أنها شاهد، وكما كانوا سيحفظون العقيدة والممارسة التي شدد على أنهما أساس الامتيازات الخاصة الموعودة هنا. وكانوا سينقلونها إلى ذريتهم برهاناً لا يُدحض لدافع اعتناقهم الإسلام. علاوة على ذلك، هل نجد أيّ كُتبٍ نقلتها الأيدي غير تلك التي لدى اليهود والمسيحيين متداولة حالياً، والتي كانت متداولة من قديم الأزمنة دائماً؟ وإذا لا يحوز المُحمّديون كتاباً مختلفاً للعهد القديم والجديد عمّا هو متداول بين اليهود والمسيحيين، فإنّ ذلك برهان قاطع بأنّه ليس ثمة من حاجة إلى مثل هذه الحيلة؛ وأنّ اليهود والمسيحيين الذين دخلوا في الإسلام، كانوا مقتنعين بأنّ إخوانهم الذين رفضوا أن يصبحوا مسلمين، احتفظوا بالكتب في سلامتها؛ أو في الواقع لم يكن ثمة قطّ من أساس مهما كان للشك بأنّ الأمر كان خلاف ذلك.

92. سُورَةُ الْبَيْتَةِ (98 / 1 - 5).

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَالْمُشْرِكِينَ، مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيْتَةُ؛

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً،

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ.

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيْتَةُ؛

وَمَا أُمِرُوا (فِي كُتُبِهِمْ) إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾: في كتابهم التَّوْرَةُ والإنجيل - (الجلالين). ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾: أي في كتبهم بما فيها - (البَيْضَاوِي). (ملاحظة. يرى البعض أنَّ هذه السورة تنزلت في مَكَّة).

إنَّ ذلك شاهد لا لبس فيه بصدد نقاء كلِّ من الكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ. على كلِّ، ربَّما ضلَّ كثيرٌ من يَهُودٍ وَمَسِيحِيِّ ذلك العصر في ممارستهم، أو حادوا عن جادة الصَّواب أو حرَّفوا المعنى وعقائد كلمة الله، لكنَّ الكُتُبَ التي تحتوي هذه الكلمة، وكما كانت متداولة بينهم، كانت، وحسب هذا المقطع، خالية من أيِّ مزج آخر غير الحقيقة التامة والخالصة. إنَّها احتوت الوصية الإلهية في ﴿الدِّينَ حُنَفَاءَ... وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

93. سُورَةُ الْجُمُعَةِ (62 / 5).

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا. بِشَرِّ مَثَلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

شُبَّهَ الْيَهُودُ هنا بحمارٍ محمَّلٍ بأكثر الكُتُبِ قيمةً، وهو لا يعي فائدتها أو قيمتها؛ ورغم أنَّهم القِيَمُونَ المَعِينُونَ على الكُتُبِ الْمُتَزَلَّةِ، إلَّا أنَّ كَافَتَهُمْ كَانَ لا يدرك محتوياتها الْمُقَدَّسَةَ، فحَرَمُوا من الانتفاع بها.

إنَّ هذه اللوحة تدعم بقوة النظرة المأخوذة على طول القرآن بخصوص موقف وسلوك الْيَهُودِ؛ وهي لا تختلف بشكلٍ جوهريٍّ عن الآراء التي غالباً ما يُعَبَّرُ عنها الْمَسِيحِيُّونَ بِشأنهم. ورغم اشتغال العهد القديم لكلمة الله النقية والسليمة، فإنَّ الْيَهُودَ ليس لديهم الحسُّ الروحانيُّ الكافي لرؤية الحقيقة التي

تشهد عليها. إنهم لا يصرون الحقيقة.

إن مغزى المقطع يفيد بشكل لا لبس فيه أن اليهود كانوا يحوزون كلمة الله الحقيقية، وكان ينقصهم الإقرار والتطبيق القويم؛ لكنهم كانوا على جهالة شديدة وعجز في البصيرة.

94. سُورَةُ الْفَتْحِ (48 / 29).

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ. تَرَاهُمْ رُكْعًا، سُجَّدًا، يَتَتَفَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا. سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ؛ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَلَا زَرْعَ فَاسْتَفَلَّظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوِّفِهِ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعُ؛ لِيَنْظُرَ بِهِمُ الْكُفَّارُ. وَعَدَدُ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

ربما تكون الإشارة هنا إلى بعض الصور في المزامير، أو إلى مثل حكاية الزرع في الإنجيل.

95. سُورَةُ الصَّفِّ (61 / 6).

وَلِإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ». فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ.

أوردَ مُحَمَّدٌ الْآيَةَ عَلَى أَنَّهَا رِسَالَةٌ مِنْ يَسُوعَ إِلَى شَعْبِهِ. وَهِيَ تَقْرَأُ بِنِقَاءٍ وَمَوْثُوقِيَةِ الْكِتَابِ الْيَهُودِيِّ كَمَا كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ يَسُوعَ. إِنَّ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ كَانَ تَامًا آنَئِذٍ، وَشَرِيعَتُهُ مَنْجُزَةٌ كَمَا هِيَ الْآنَ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ بَأْنَ «التَّوْرَةِ» الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ تَعْنِي كَامِلَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ: الشَّرِيعَةُ، الْمَزَامِيرُ، وَالْأَنْبِيَاءُ، كَمَا كَانَ مُتَدَاوِلًا وَمُعْتَرَفًا بِهِ فِي زَمَنِ يَسُوعَ.

ويبدو أنَّ الآية تشير إلى الوعد من قبل يسوع بصدد الهراكلية أو المعزِّي والذي قُرئ ييركليت، وهو لفظٌ ناسبٌ مُحَمَّداً لكي يعتبره نبوءةً عنه.

96. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 44 - 47).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ؟ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ، وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ؛

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَانِكُمْ. وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا، وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا.

مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ: «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا»، وَ«اسْمِعْ غَيْرَ سَمْعٍ» وَ«رَاعِنَا»؛ لَيًّا بِالسِّتِمْ، وَطَعْنًا فِي الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، وَ«اسْمِعْ» وَ«انظُرْنَا»؛ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ. وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ! آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ، مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا، فَنَرَدَّهَا عَلَى أَذْبَارِهَا، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ؛ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا.

لكي أعرض سياق النصِّ فإنِّي أوردته كاملاً. فالخطاب هنا ليهود يَتْرِب، الذين يستعملون أقوالاً محرَّفة، وكلمات ذات معنى ثنائي أو ملتبس، وعبارات في غير معناها المألوف، ومقاطع مقطوعة من سياقها، وتهدف هذه المنهجية لجعل مُحَمَّد موضع السخرية والظعن في الدين، بينما يحتمي هؤلاء وراء معنى آخر ليس ظاهراً.

إنَّ المغزى هنا يماثل لما في الآية التالية من سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2/ 104): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمِعُوا﴾. كلتاها كانتا صيغة نحيّة. بيد أنَّ الأولى كانت تحمل لمسةً من الإساءة أو الاحتقار؛ وقد كان هذا

المعنى المقصود من جانب اليهود، ولذلك فإن مُحَمَّداً حَرَّمَ استعمالها تماماً. إنها نفس الممارسة التي شجبتها في النص.

إنَّ شرح عبد القادر، مترجم الأوردو للقرآن، مناسب بشكل مقبول. ولدينا ملاحظته:

﴿رَاعِنَا﴾: كلمة كانت متداولة فيما بينهم، وقد سُرحَت من قبل في الآية الثانية من سُورَةِ الْبَقَرَةِ، على النحو التالي: عندما كان النَّبِيُّ يَتَكَلَّمُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَجِيبُونَ ﴿سَمِعْنَا﴾، وهو ما كان يعني لقد تَلَقَّينا كلماتك؛ بيد أنَّهم كانوا يضيفون مفردة أخرى ﴿وَعَصَيْنَا﴾؛ أي لقد سمعناه بأذاننا فحسب، ولم نسمع بقلوبنا، ولهذا كانوا لدى خطابهم النَّبِيَّ، يقولون: ﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾، إنَّ التعبير الظاهريُّ هو استرحام للخير، أو كُنْ منتصراً دائماً، ودَعْ لا أحد يجزؤ على قول كلمة سوء بحقك، بيد أنَّهم كانوا يقصدون ببواطنهم التكنُّن أصم؟ وكان يَدِينُهُم ارتكاب مثل هذا الشرور⁽¹⁾.

وعلى هذا، فَإِنَّ «اللَّيَّ» و«تَحْرِيفَ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ» تكمن في قول، مثل ﴿سَمِعْنَا﴾، مع احتمال إضافة بصوت منخفض ﴿وَعَصَيْنَا﴾ و﴿اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾، الملفوظة بشكلٍ متشابه؛ و﴿رَاعِنَا﴾، وهي المفردة التي كانت تُستعمل بمعنى مهين.

إنَّ هذا يسمَّى في النص ﴿كَيْدًا بِالسِّتَةِ﴾، والتي يشرحها الجلالين على أنَّ

(1) راعنا لفظ بولتي تهي إسكا بيان: سورة بقر مين هوا اسي طرح حضرت بات فرماتي تو جواب مين كهتي سنا همني اِسكي معني بهه هين كه قبول كيا ليكن آهسته كهتي كه نه مانا يعني فقط كان سي سنا اور دل سي نه سنا اور حضرت كو خطاب كرتي توكهتي هين نسنايا جائبو ظاهر مين بهه دعا نيك هي كه توهميشه غالب رهي كوئي تهكهو بري بات نه سنا سكي او ردلعين نيت ركهتي كه تو بهرا هو جائبو ايسي شراوت كرني.

لها نفس المعنى لمفردة «يُخَرِّقُونَ» الواردة من قبل، فيقول: «لَيَا» تحريفاً «بِالْيَسْتِهِمْ». ولهذا فإننا نصل إلى أن التحريف أو تغيير الكلام عن مواضعه الذي يَتَّبِعُ به اليهود، كان من طبيعة ما شرحه النص، وليس له أي صلة على الإطلاق بأي تحريف أو تغيير من جانب اليهود للكتب المقدسة نفسها.

إن فحوى المقطع، على العكس، «تؤكد»، و«تصادق»، أو «تشهد رسمياً» بغير ريب للكتب التي كانت لديهم؛ أي الكتب المنزلّة كما كانت لدى اليهود آنذاك. ولهذا بقدر ما هو بعيد وجود اتهام ضد هذه الكتب كما كانت موجودة في أيدي يَهُود يَتْرَبُ ولدى إخوانهم المشتريين في أرجاء المعمورة، فإنه صُودق عليها على أنها صحيحة وموثوقة.

97. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 51).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ؟ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً.

حسب المفسرين، فإن النص يشير إلى يَهُود محددين، وهم الذين استشارتهم قُرَيْشٌ بصدد القيمة الحقيقية للإسلام، فأعلنوا بأن وثنيّتهم كانت أفضل من دين مُحَمَّدٍ الْمَزْيِف. وإنه لا يتصل كثيراً بموضوعنا الحالي، غير أنه يؤشر على البغض الذي بدأ يتزايد بين اليهود ومُحَمَّدٍ.

98. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 54-55).

أَمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا، وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ. وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا.

شهادة على الأصل الإلهي لكتب اليهود وإلى إيمان البعض من اليهود،

الذين، مهما فعل الآخرون، لن يعرضوا كتبهم للتلاعب.

99. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 60).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ؟ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ؛ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا.

ثمة تأكيد هنا على أنَّ بعض اليهود، الذين أقرُّوا بإيمانهم بالقرآن كما بالكتب السابقة، أبدوا استعداداً للمضي وحسم خلافهم حسب العادة الوثنية أمام الصنم. فأبان مُحَمَّدٌ لهم سوء صنعيتهم، بإحالتهم إلى كتبهم المُقدَّسة الخاصة وتحريمها الفاطم للوثنية. إن هذا الأسلوب الذي أشار فيه مُحَمَّدٌ إلى الكتب لا يمكن أن يصدر إلا عن امرئ كان يعتقد بأنها تحتوي على أوامر الله غير المحرَّفة.

100. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 131).

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَإِيَّاكُمْ: أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا، فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا.

﴿الْكِتَابَ﴾: بمعنى الكتب؛ ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: أي اليهود والنصارى - (الجلالين).

إنَّ كُتُبَ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ الْمُقدَّسة تُعْتَبَسُ هنا ضمن نفس الفئة مع القرآن، بوصفها تعاليم الله الصَّادقة.

101. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 136).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ،

وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ؛ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

لا يُعَارَى مطلقاً بأن ما يراه المؤمنُ في القرآن في هذه الآية هو أنها تأمر كلَّ
مؤمنٍ لا الإيمان بالكتاب الذي جاء به مُحَمَّدٌ فحسب، بل كذلك بالكتب التي
أنزلت من قبله؛ ومن يكفر فيها، أو «ومن كفر بشيء من ذلك» (البَيضَاوِي)
يُعلن أنه قد ضلَّ ضلالاً بعيداً وخطيراً.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْكِتَابَ الَّذِي
أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾، أثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه وآمنوا به بقلوبكم
كما آمستم بالستكم، أو آمنوا إيماناً تاماً عاتماً يعمُّ الكتب والرسول فإنَّ الإيمان
بالبعض كلا إيمانٍ (البَيضَاوِي).

فيما يتصل بالفرقِ المُخاطبة، فإنَّ لدى البَيضَاوِي التعليق التالي: «خطابٌ
للمسلمين، أو المنافقين، أو المؤمنين من أهل الكتاب؛ إذ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ سَلَامٍ
وأصحابه قالوا: يا رسولَ اللَّهِ إِنَّا نؤمن بك وكتبك وبموسى والتَّوراة وعزير
ونكفر بما سواه فترلت: ﴿آمِنُوا...﴾».

مهما كانت مناسبة الآية، أو من هي الأحزاب الخاصة المعنيَّة بالخطاب،
فإنَّ الأمر كما بالوسع تبينه هو شامل ومطلق. إذ يُعلن بأنَّ اللَّهَ يطلبُ الإيمانَ
بكلِّ الكتب المنزلة، أي، ليس بالقرآن فحسب، بل أيضاً بكافة الكتب المُقدَّسة
المنزلة قبل القرآن، أي تلك التي يُشار إليها دائماً على أنها ﴿لَمَّا مَعَهُمْ﴾ أو
بأيدي اليَهُودِ والمَسِيحِيِّينَ. لا يجب على اليَهُودِ رفض الكتب المَسِيحِيَّةِ؛
والمَسِيحِيُّونَ سيتلقون ليس الكتب اليَهُودِيَّةَ والمَسِيحِيَّةَ فحسب، بل القرآن
كذلك؛ ولا يجب على المسلمين أن يؤمنوا بالقرآن فحسب، بل بالكتب
اليَهُودِيَّةَ والمَسِيحِيَّةَ بطريقة مماثلة. فإنَّ لم يفعلوا فإنَّهم يوصفون بأنَّهم ﴿ضَلَّ

صَلَاةً بَعِيداً».

ماذا سنقول إذا لهؤلاء المسلمين في الوقت الحاضر الذين يرفضون ويكفرون بتلك الكتب، وكم صَلُّوا صَلَاةً بَعِيداً حسبما أعلن القرآن!

102. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 150 - 153).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ؛ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ؛ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا؛ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُقَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ...

إن معنى هذا المقطع يماثل المعنى الخاص بالآخر، والعبرة المستفادة منه هي نفسها. مع أنه يُخاطب بشكل رئيس اليهود الذين يكفرون بالإنجيل، فإن تحذيره قابل للتطبيق على المسلمين أيضاً، الذين إذ يعترفون بالسهم بالتوراة والإنجيل، فإنهم يكفرون فعلياً بتلك الكتب الإلهية: كتب اليهود والمسيحيين الصحيحة التي كانت قيد التداول في القرن السابع الميلادي، وهو الإيمان الذين يرى القرآن أنه يجب يكون أساسياً.

إِنَّ الْمُحَمَّدِيِّينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكَتَبِ السَّابِقَةِ، كَمَا بِالْقُرْآنِ أَيْضًا، لَهُمْ ثَوَابٌ حَسَبَ النَّصِّ أَعْلَاهُ، فِي حِينِ أَنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهَا «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَاللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا».

103. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 162 - 164).

لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ، مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ. وَالْمُقِيمِيْنَ الصَّلَاةَ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَيُوسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمَارْيَمَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا؛

وَرُسُلًا، قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ؛ وَرُسُلًا، لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ؛ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا...

لاحظ:

أولاً: إِنَّ المقطع وإن كَانَ يخاطبُ الْيَهُودَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ بِعِبَارَاتٍ قَابِلَةٍ لِلتَّطْبِيقِ بِشَكْلِ مُتَسَاوٍ عَلَى كَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ. وَإِنَّ الْوَعْدَ بِ«أَجْرٍ عَظِيمٍ» لَا إِلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ فَقَطْ، بَلِ الَّذِينَ «يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ».

ثانياً: يُعْلَنُ شَكْلُ وَحْيِ مُحَمَّدٍ بِأَنَّهُ نَفْسُ مَا كَانَ يَأْتِي الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ.

ثالثاً: إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَدَّعِي تَقْدِيمَ تَعْدَادٍ كَامِلٍ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ. لَكِنْ لَاحِظَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِهْمَالِ بِشَكْلِ مَقْصُودٍ وَالتَّحْدِيدِ الْغَامِضِ لِلْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَالنَّمَطِ الدَّقِيقِ وَالْمَحْدَّدِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ فِيهِ دَائِماً عَنْ «الْكَتَبِ» الَّتِي «أُتِيَتْ» أَوْ أَوْحِيَ بِهَا.

104. سُورَةُ النَّسَاءِ (4/ 171).

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ. إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَامَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا: «ثَلَاثَةٌ»؛ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ. إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدًا لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

إن تهمة الغلول بالذنين موجهة كلها للمسيحيين. إن اتهام إساءة تفسير الكتاب بتحريف «الكلمة عن مواضعه»، لم توجه ضدهم قط. لكن - رغم كونه اتهاماً مغلوطاً - ألا نجد هنا تقديراً قريباً من العقائد التي يراها المسيحيون؟

من سُورَةِ الْمَائِدَةِ (5/ 116)،⁽¹⁾ يظهر ترجيح أن مُحَمَّدًا كَانَ يرى أن مَرْيَمَ في عقيدة مَسِيحِيّ زمنه هي إحدى شخصيات الثلاث. ولعل ذلك نشأ عن عبادة مَرْيَمَ العذراء في بعض الكنائس المَسِيحِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، ومن إفادات أتباع مُحَمَّدٍ من الْيَهُودِ؛ الذين اطلعوا بشكل منقوص على الْمَسِيحِيَّةِ. لو كانت العقيدة المتعلقة بِمَرْيَمَ العذراء قد بُسِطت بشكل صحيح أمام مُحَمَّدٍ، مع الولادة الروحية السرمديّة لابن الله، وأظهرت بأنها قابلة للاستنتاج بشكل ضروري من البناء المنطقي للكتب المقدّسة التي يقرّ هو نفسه بأنها مُنزلة، فهل كان سيرفض المصادقة على هذه العقائد؟

105. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 2-4).

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ.

(1) [وَإِذْ قَالَ اللَّهُ: يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَلَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ: «سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ. إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ؛ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَهْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ»؛ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ]. م. م.

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ؛ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ (الْكِتَابِ
 الْمُنَزَّلَةِ) اللَّهُ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ. وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.
 لقد أَنْزَلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ فيهما ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، والجملة ترد فوراً
 بعد تعدد هذه الكتب، وتضيف بأن مَنْ يكفر ﴿بِآيَاتِ (أَيُّ الْوَحْيِ) اللَّهُ﴾، فإنَّ
 له «عَذَاباً شَدِيداً».

على المسلمين إذا - مثل الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ - الحذر من الْكُفْرِ بِأَيٍّ من
 آيات وكتب ﴿اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، لئلاً يجعلوا من أنفسهم عرضةً لغضبه،
 ويتعرضوا لـ ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

106. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 19).

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ.
 انظر المقاطع السابقة ذات المعنى المشابه.

107. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 23-24).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ؟ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، لِيَحْكُمَ
 بَيْنَهُمْ. ثُمَّ يُتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ، وَهُمْ مُّعْرِضُونَ.
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: «لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ، إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ». وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ
 مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

يروى المفسرون عدّة حوادث بوصفها سبباً لتزول النص. ولا يعني
 تناولها؛ فمهما كان السبب، فإنَّ ما اتفق عليه من جميع الروايات أنّه كَانَ يوجد
 خلاف في الرأي بين مُحَمَّدٍ وَالْيَهُودِ، فاقترح النَّبِيُّ على الآخرين الفصل في

القضية بالرجوع فعلياً إلى كتبهم؛ وقيل إنَّ بعضَ اليهودِ رفضوا القيام بذلك، وانفضوا عنه.

إنَّ الكتابَ الذي اقترحه مُحَمَّدٌ كي يكون حَكماً في الخلاف، كانَ الكتابُ اليهوديُّ المقدَّسُ، المتداول بين اليهودِ، والذي اعترف به كلاهما - اليهودُ ومُحَمَّدٌ - إنَّه كتابٌ منزلٌ؛ وأنَّ هذا الكتابَ الذي وجبَ إحضاره والاحتكام إليه من قبلِ الجانبين. وقد سُمِّيَ «كِتَابُ اللَّهِ».

هل ثمة شهادة أكثر قوةً يمكن أن يُرغب بها على الأصل الإلهي وموثوقيَّة الكتبِ اليهوديَّة كما كانت بين أيدي اليهودِ، والتي اقترح مُحَمَّدٌ نفسه أن تكون السُّلطة النهائيَّة والمطلقة في الخلاف؟

108. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 48 - 50).

وَيُعَلِّمُهُ (اللَّهُ يَسُوعَ) الْكِتَابَ، وَالْحِكْمَةَ، وَالتَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ؛

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. (قال يسوع) أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ... مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ.

من أجل توفير المساحة، فإننا أغفلنا القصص المتعلقة بالمعجزات التي قام بها المسيح نفسه. إنَّ كلمات يسوع، كما استشهد بها هنا في القرآن، تظهر أنَّ العهد القديم الذي كانَ موجوداً في زمن يسوع، هو في حالته الأصليَّة وغير المحرَّفة. وبالفعل، قد لا يكون ضرورياً الإشارة إلى هذا المقطع، ذلك أنَّ نفس الكلمات المصدَّقة التي أوردها مُحَمَّدٌ في القرآن تخصُّ كلا العهدين: القديم والجديد.

109. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 65 - 66).

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ؟ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا

مِنْ بَعْدِهِ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟

هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبُكُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؛ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

حسب المفسرين، فإنَّ النَّصَّ ينطبق على الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ، الذين ادَّعوا كلاهما أَنَّ إِبْرَاهِيمَ ينتمي إلى ديانتهم، وهذا ما سيدحضه مُحَمَّدٌ بقوله إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عاش قبل نزول العهد القديم، وكذلك الإنجيل؛ فكيف يقولون إذاً بأنه ينتمي إلى ديانة كُلِّ من هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ؟ أو ما هي وسائل الحكم التي لديهم من كتبهم حول ماهية دينه؟ نحن لا ندعي الإدلاء برأي بصدد صحة هذا البرهان. إِنَّ المقطع أُورد ببساطة لأنَّ العهدَيْنِ القديم والجديد المذكوران فيه. إِنَّ العلم الذي يُعترف بأنَّ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ يحوزونه، والمتعلِّق ببعض النقاط المحددة التي كانوا يختلفون فيها، هو بدون شك معرفة كتبهم الخاصة.

110. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 69-73).

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ؛ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ؟

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: «آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ، وَافْتَرَوْا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ نَّبَعِ مِنْكُمْ». قُلْ: «إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ». أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ؟ قُلْ: «إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ؛ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

حسب جميع الروايات، فإنَّ الخطاب في المقطع لِيَهُودَ يَثْرَبَ، الذين عارضوا مُحَمَّدًا. فهو يفتح بتنفيذ العقائد المنحرفة التي سعوا إلى غرسها في مُحَمَّدٍ وأتباعه. لقد كانوا متشبهين بشكل متعصب بمنظومتهم الخاصة، وكانوا يعتقدون طبيعياً بالقول الشائع ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ بَيَّعَ وَبَيْنَكُمْ﴾، وقد أضاف ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي بعقائدهم الضالة. وذلك بتفسيرهم وتطبيقهم الفاسدين لكتبهم، وهو الأمر الذي ويحُ مُحَمَّدُ الْيَهُودَ عليه. ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أي البرهان المتضمن في كتبكم، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

فيما يتعلق بالاثِّام بـ «كتمان الحق»، انظر الملاحظات، والاستشهاد من ابن إسحق في الفقرة (85). إِنَّ التَّهْمَةَ الْمَوْجُوهَ إِلَيْهِمْ هُنَا هِيَ أَنَّهُمْ يَخْفُونَ الْحَقَّ، ويفسرون كتبهم بشكل خاطئ ومنحرف. إِنَّ الْكُتُبَ نَفْسَهَا كَانَتْ نَقِيَّةً وَسَلِيمَةً؛ يَدَّ أَنْهُمْ أَسَاؤُوا فَهْمَ مَعْنَاهَا، أَوْ أَسَاؤُوا اسْتِعْمَالَهَا عَمْدًا.

إِنَّ تَهْمَةَ الْإِقْرَارِ بُوْحِي مُحَمَّدٍ صَبَاحًا، ثُمَّ رَفَضَهَا مَسَاءً، يَعْرِضُهَا ابْنُ إِسْحَاقَ فِيمَا يَلِي:

«قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَيْفٍ، وَعَدِيَّ بْنُ زَيْدٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اتَّعَالَوْا نَوْمَنَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غُدُوَّةً، وَنَكْفَرُ بِهِ عَشِيَّةً، حَتَّى نَلْبَسَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَصْنَعُونَ كَمَا نَصْنَعُ، وَيَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِ». فَأُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟﴾⁽¹⁾.

ورداً على هذه الخدع التافهة، التي تهدف إلى إلقاء الشك في وجهه، فإنَّ مُحَمَّدًا أَجَابَ بِأَن تَأْيِيدَاتِ اللَّهِ الْوَحْيَةِ (ليس كما يرى الْيَهُودُ، مقتصرة على

(1) [سيرة ابن هشام: المجلد 1، ص 553. عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَيْفٍ، أَوْ صَيْفٍ، م.]

أَمَّتْهُمْ الْخَاصَّةُ فَحَسْبُ) لا تتعلق بالأشخاص، بل هي شاملة. وعلاوة على ذلك، فَإِنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ أَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ لَأَمْتَهُ: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ (أَيَّ مُحَمَّدٍ) مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾، أي، مثل كُتُب العهد القديم الْيَهُودِيَّة. إِنَّ هَذَا الْمَقْطَع، وعوضاً عن أَنْ يَكُونَ اتِّهَاماً ضِدَّ الْكُتُب الْيَهُودِيَّة، يحتوي على ذكر واضح وتبجيلي لمرجعيتها وأصالتها الإلهية؛ ويشبه القرآن بالكتاب الْيَهُودِي: ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

111. سُورَةُ آلِ جِفْرَانَ (3/ 78).

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ السِّتْهُمْ بِالْكِتَابِ، لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ؛ وَيَقُولُونَ: «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

يُوجِّه هنا نقد لاذع لِيَهُود يَتْرَب لمحاولتهم المَكْر بِمُحَمَّدٍ أو أتباعه؛ ويُزعم أنَّهم ادَّعوا بأنَّ بعض المقاطع التي قرؤوها على مُحَمَّدٍ أو أتباعه جاءت في الْكُتُب، بينما هي في الواقع ليست من الْكُتُب الْمُقَدَّسَة. وكانوا يتلونها وهم ﴿يَلُؤْنَ السِّتْهُمْ﴾، أي بأسلوب كلام مراوغ، أو ذي معنيين. إِنَّ التعبير مشابه لما ورد في سُورَةِ النَّسَاءِ الْآيَة 46 (ف 96)، ﴿لَيَّاَ بِالسِّتْهُمْ﴾ - انظر في موضعها.

مهما كانت طبيعة هذا السلوك، وسواءً بلغ حدَّ المكيدة فعلياً والمراوغة في تلاوة التقاليد، والشروح، أو أيِّ كتاباتٍ أخرى من أحبارهم، بحيث يُظَنُّ معها أنَّهم يَسْتَشْهَدُونَ من الْكُتُب، فَإِنَّهُ واضحٌ عدم وجود إشارة، مهما كانت، إلى التلاعب بِالْكُتُب نفسها. بل على العكس، حتَّى وإنَّ كانت التهمة من طبيعة وخطورة الخداع الفعلي، فَإِنَّهَا تعني ضمناً بأنَّ الْيَهُود لم يجرؤوا على ارتكاب أيِّ تدنيسٍ مثل تغيير الْكُتُب الْمُقَدَّسَة. بل ببساطة زعموا أنَّهم يقرؤون منها، بينما في الواقع كانوا يقرؤون من مصدرٍ آخر، ولكنَّهم تمكَّنوا بأسلوب حديثهم

المخاتل⁽¹⁾ أن يبعدوا المسلمين عن الدين الذي كان كلمة الله.

إن ذلك ينسجم تماماً مع ما هو معروف عن اليهود أنهم كانوا في كل الأزمنة شديدي الدقة فيما يخص الحرف والنص من كتبهم المقدسة، على أي حال، ربّما كانوا في أي مجال آخر عديمي الضمير.

112. سُورَةُ آلِ هِمْرَانَ (3/ 79).

مَا كَانَ لِيسرَ أَنْ يُؤَيِّنَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَالْحُكْمَ، وَالنَّبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ، كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ وَلَكِنْ، كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ.

مهما كانت مناسبة النص، وسواء أكان ينطبق على اليهود أو المسيحيين، فإنه يدل على أنه بإمكانهم من قراءة كتبهم والقيام «بدراستها» أن يكونوا نتيجة لذلك «رَبَّانِيِّينَ». إن النص شهادة مسهبة على أصالة وفضيلة الكتب المنزلّة، الموجود آنذاك بأيدي اليهود والمسيحيين.

البعض يشرح: «الرباني هو الكامل في العلم والعمل»، «بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ»: بسبب كونكم معلمين الكتاب، وبسبب كونكم دارسين له؛ فإنّ فائدة التعليم والعلم معرفة الحق، والخير، للاعتقاد والعمل.

113. سُورَةُ آلِ هِمْرَانَ (3/ 81).

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ، لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ؛ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ؛ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ...

إنّه يقرّ بأنّ أمراً مُعطى من الله لأنبيائه السابقين، كي يؤمنوا بمُحمّد عندما

(1) العبارة القرآنية: «يَلُؤُونَ الرِّسَالَةَ»، م.

يحلُّ موعد خروجه، ولأجل أن ينصروه. وفي هذا الأمر النَّبِيُّ، كيف وُصف مُحَمَّدٌ؟ ببساطة ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾. وهذا مَعْلَمٌ كبيرٌ أوجب على اليهود والمسيحيين أن يقرؤا بالنَّبِيِّ القادم، وهو إنَّه سيقدم تأكيداً هلى الكُتُب الإلهية التي هي ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾، أي الموجودة آنذاك في أيديهم.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾: من الكِتَاب والحكمة وهو مُحَمَّدٌ - (الجلالين).

114. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 84).

قُلْ [يا مُحَمَّد]: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

إنَّها كما في الفقرة (81)، وتقريباً كلمة بكلمة، راجع الفقرة.

115. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 93-94).

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ، قُلْ: «فَاتَّوُوا بِالتَّوْرَةِ، فَاتْلُوهَا، إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

في النقاش مع يَهُود يَثْرِبَ بصدد أكل أنواع معينة من اللحم المحرَّم حسب القانون اليهودي (يقول المفسرون إنَّه لحم الإبل)، فإنَّ مُحَمَّدًا أَيْد حجته بالقول إنَّ تحريم بعض الأنواع من اللحم محدَّد بالتَّوْرَة فحسب، أو الكُتُب الخمسة؛ وإنَّه لم يكن هذه اللحم محرَّماً على الإطلاق في زمن إِبْرَاهِيم وفي كُلِّ الأزمنة قبل نزول الشريعة على مُوسَى، ما عدا ما جعله يَعْقُوب محرَّماً على نفسه وفق طوع مشيئته، والذي يُمنع على بني إِسْرَائِيل أكله وفقاً لذلك (انظر، سفر التكوين: 32/ 32). وبالتالي فإنَّ مُحَمَّدًا جادلاً، بأنَّه في المعتقد

الإبراهيمي (أو الحنيف) الذي كان يتقيد به، فإن هذا اللحم ليس محرماً.

من أجل البرهنة على موقفه، أورد مُحَمَّدُ الكلمات في النص التالي الذي يأمره الله فيه أن يقول لليهود: ﴿فَاتَّوُوا بِالتَّوْرَةِ، فَاتْلُوهَا (للبرهان إن كنتُ محققاً أم لا)، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إنَّ ذلك يجب أن يكون قراراً جازماً ونهائياً للمسألة؛ ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

لقد كانت التَّوْرَةُ آنذاك العهد القديم، الذي كان يهود يَتَرَبَّ يتداولونه، بالتشارك مع يهود جميع البلدان المجاورة، والذي طلب مُحَمَّدُ إبرازه للملإ، والاحتكام إليه بالتالي بوصفه مرجعاً لا يرقى إليه الشك للمسألة موضع الخلاف.

116. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 99).

قُلْ، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ؟
قُلْ، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ آمَنَ تَبَغُّوْهَا عِوَجاً،
وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ؟

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾: عالمون بأن الدين المرضي القيم دين الإسلام كما في كتابكم - (الجلالين). إنه إشارة غير مباشرة إلى الطابع الموثوق للكتب المقدسة التي في حوزة اليهود.

117. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 113 - 114).

لَيْسُوا سَوَاءً. مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ،
وُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

إنَّ النَّصَّ، الذي أتى بعد مقطع يدين الْيَهُودَ لِقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وعلى عصيانهم،
يصرِّح بأنَّ نَمَّةً في زمن مُحَمَّدٍ يَهُوداً صَادِقِينَ وَجِيدِينَ، كانوا يقرءون الْكُتُبَ،
وما ينفكُّون يصلُّون أبداً.

سواءً أَكَانَ مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ قد انضموا إلى الإسلام أم لا، فإنَّه لا يمكن
تصوُّر أنَّهم كانوا سيغيِّرون، أو كانوا سيرضون بالوقوف صامتين والعهد القديم
يتعرَّض للتغيير، وتعليمه مغروسٌ فيهم حسب موضع آخر في الْقُرْآنِ، والذي
زُعم بأنَّه يحتوي الكثير من البراهين على رسالة مُحَمَّدٍ.

118. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 119).

هَآأَتُمْ أَزْوَآءَ تُحِبُّونَهُمْ (الْيَهُودَ)، وَلَا يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ.

﴿بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: أي بالْكُتُبِ كُلِّهَا - (الجلالين). بجنس الْكِتَابِ كُلِّهِ،
والمعنى أنَّهم لا يحبُّونكم والحال أنَّكم تؤمنون بكتابهم - (البيضاوي).

إنَّ المسلمين آمنوا بكتب الْيَهُودِ: إنَّ ﴿الْكِتَابَ كُلِّهِ﴾ كتابُ العهد القديم
الذي يُعتقد أنَّ اللَّهَ أنزله على الْيَهُودِ قبل زمن مُحَمَّدٍ، كَانَ يُؤْمِنُ به بصورة
متساوية كُلٌّ من مُحَمَّدٍ وأتباعه.

119. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 183 - 184).

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا، أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ؛
قُلْ: «قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي، بِالْبَيِّنَاتِ، وَبِالَّذِي قُلْتُمْ. فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ، إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ؟»

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ، جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ، وَالزُّبُرِ، وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ.

إِنَّ الْكُتُبَ المقرَّظة هنا هي كتب اليهود والمسيحيين. وعلى ذلك يقول الجلالين: ﴿الْمُنِيرِ﴾: الواضح، هو التَّوراة والإنجيل.

120. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 187 - 188).

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ؛ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ، وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَبَدَّلُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ؛

لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا، وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

يذكر النصُّ أساس الخلاف بين مُحَمَّدٍ واليهود. أنَّهم رفضوا الاعتراف به، أو الإقرار بأنَّ ثَمَّةَ نبوءةٍ في كتبهم تشير إليه لو فُسِّرَتْ بشكل صحيح. وقد أخفق مُحَمَّدٌ في إقناعهم بـ «نشرها». وهذه هي تهمة إخفاء الحقِّ؛ وبيعه مقابل ربح قليل، وهي تهمة يُحاجج بها هنا، كما في أمكنة أخرى في القرآن، ضد اليهود.

121. سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (3/ 199).

وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ، خَاشِعِينَ لِلَّهِ؛ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: من الكتابين - (البَيضاوي). أي التَّوراة والإنجيل - (الجلالين). ويضيف نفس المفسر:

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي عندهم في التَّوْرَةِ والإنجيل من بعث مُحَمَّدٌ؛ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الدنيا بأن يكتسبوا خوفاً على الرياسة كفعل غيرهم من اليهود - (الجلالين).

يُشار هنا إلى اليهود والمسيحيين الطيبين بأنهم يواصلون الإيمان به، ويعتقدون بشكل ثابت، بالعهد القديم والجديد، وكذلك بالقرآن. إنهم لم يسيثوا تفسيرها، ولم يحرفوا معانيها. وعلى أي حال، لا بد أنهم أخذوا كل وسيلة لمراقبة كتبهم السابقة، كما القرآن، تتناقلها الأجيال، نقيّة وخالصة.

122. سُورَةُ الصَّائِلَةِ (5/ 13-15).

فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ. وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ، إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ. فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا: «إِنَّا نَصَارَى»، أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ. فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا؛ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ.

لدينا هنا نفس التهمة الموجهة ضدَّ اليهود بالضبط كما في الفقرة (96)، أي تهمة أنهم «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ». ومن الملاحظ: أولاً، هنا وفي أماكن أخرى، أن التهمة مقتصرة على اليهود؛ ولم يُلْمَح قطُّ بمثل هذا الإثم ضدَّ المسيحيين. وثمة حقاً اتُّهم بنسيان «حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ»؛ ومن الواجب الاعتراف بأن ثمة في ذلك العهد، كما في كل عصر، أساس كبير للتهمة.

وهذا بالتحديد، ما يمكن قوله بشأن مسلمين كثيرين في عصرنا لدى قيامهم بالتعازي، والصلاة للسادة والمرشدين، وتقديم التذوق إليهم، إلخ، بأنهم «نُسُوا حَقّاً مُّماً ذُكِّرُوا بِهِ» في القرآن. بيد أنه ليس ثمة هنا، أو في مكان آخر أي تهمة ضد المَسِيحِيِّين بأنهم «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»، أو حتى بأنهم يسيئون تفسير الكُتُب ويحرفون معانيها. ولهذا (بالنسبة لهدفنا الحالي) لا يعني كثيراً تبرة اليهود من مثل هذه الملامات؛ لأنه كان معروفاً من غابر الأزمنة، أن كافة الكُتُب اليهودية كانت في حيازة المَسِيحِيِّين كما اليهود، وكان يُنظر إليها على أنها منزلة على حد سواء مع العهد الجديد، ومثلها كانت تُتلى في كنائسهم بشكل منتظم. إذاً، ومهما كانت احتمالات أن اليهود حاولوا العبث بكتبهم الخاصة، فإن مثل هذه المحاولات لا يمكن أن تمتد إلى النسخ المحفوظة بعناية من جانب المَسِيحِيِّين.

ونعيد التأكيد، أنه لم يكن لليهود ما يفعلونه مع العهد الجديد البتة. إن «إساءة التفسير»، و«التحريف»، «تحريف الكلم عن مواضعه» إذاً، ومهما كان الذي يمكن عزوه إلى اليهود، فإن هذه التهمة لا يمكن أن يكون لها أدنى صلة ممكنة بالإنجيل.

وَيَتِمَخُّصَّ عن هذه الحقيقة إذاً، أن الكُتُب المُقَدَّسة - كل من العهد القديم والجديد - كما كانت بحوزة المَسِيحِيِّين في أيام مُحَمَّدٍ، خالية من تلك المطاعن، المعبر عنها دائماً بشكل واسع؛ والتي اعتاد المُحَمَّدِيُّون على إلقتها على الكُتُب التي كانت لدى اليهود.

بيد أنه، في المقام الثاني، فإن التهمة في النص، مع أنها تتعلق باليهود، لا تلصق أي تهمة تلاعب بنسخ كتبهم المُقَدَّسة. لقد رأينا سابقاً (ف 96) بأن نفس الكلمات استُعملت لتعني لا أكثر من أن المقاطع قد فُسرَت بشكل متعارض مع سياقها؛ ذلك أن الجُمْل كانت تُقدَّم بشكل مستقلٍ ومفكَّكٍ، ومشوَّهة المعاني؛

كما أنَّ العبارات استعملت بمعنى مضلل أو مزدوج: وفي الواقع وردت في القرآن أمثلة على تحريف الكلم عن مواضعه. ولا يمكن أن مُحَمَّداً قصدَ بهذه العبارات أبداً أنَّ اليهود قد تلاعبوا بكتبهم المنزلة. ذلك أنَّ المعنى العام وغاية الإشارات المتكررة في صفحات القرآن إلى الكتب، كما كانت موجودة بأيدي اليهود، هي إلى كتب ذات موثوقيَّة، وأصالة، ونقيَّة وإلهيَّة.

وإذا كانَ اليهود نسوا «حظاً ممَّا دُكِّرُوا بِهِ»، فإنَّ مُحَمَّداً يقول، في ختام المقطع الوارد أعلاه، بأنَّ هدفَ رسالتيه كانَ أنْ «يُبَيِّنَ كَثِيرًا» منها، وأنْ يُخرج للنور الكثير من العقائد والوصايا التي أخفوها، أو فسلوا في إظهارها؛ وأنْ «يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ»، أي، يقوم بنسخ الكثير من الطقوس والأوامر اليهوديَّة.

123. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 41).

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: «آمَنَّا»، بِأَفْوَاحِهِمْ، وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ. وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ؛ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ: «إِنْ أَوْثِقْتُمْ هَذَا، فَخَلِّدُوهُ؛ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ، فَاحْذَرُوا»...

لقد صُنِّفَ اليهودُ هنا مع منافقي يَثْرِبَ أو العاصين. فأنهموا بسماع الكذب، أو إساءة تفسير كلمات مُحَمَّدٍ إلى الناس الآخرين؛ وكذلك إنهم (دُكِّرَ سابقاً) تحريف المقاطع عن مواضعها الخاصَّة. وعُبرَ عن هذه الجريمة بشكل واضح بالكلمات «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ»، أي، إمَّا من خلال فصل المقطع عن سياقه الخاص، أو ذكره لوحده، وكذلك بإعطائه معنى مختلفاً؛ أو إعادة ذكره في سياق خاطئ ضمن مقاطع أخرى، وبالتالي تشويهها كلِّها. إنَّ هؤلاء العلماء الضالين يطلبون من الناس الذهاب إلى مُحَمَّدٍ؛ وإذا ما وجدوا أنَّ تعاليمه تنسجم معها هذه الجمل المفصولة أو المحرَّفة عن مواضعها أو

المُساء تفسيرها، فإنَّ عليهم قبولها، وبخلاف ذلك فإنَّ عليهم الحذر منها.
انظر الفقرة (96) بصدد معنى «تحريف الكلام عن مواضعه».

124. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 43 - 48).

وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ، وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ؟ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ؛ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ. يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا؛ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ، بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ. فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا: «أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ، وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ؛ فَمَنْ نَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ؛ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ؛

وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهِينًا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ. لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا؛ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً؛ وَلَكِنْ لِيُكَلِّمَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. فَاسْتَقِمْوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُبْشِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ.

يتضمن المقطع الشهادة الأكثر جلاء - حسب القرآن - للكتب التي كانت متداولة بين اليهود والمسيحيين (عندهم) في زمن محمد، ويفيد أنها أوحى بها (أنزل)، وأنها معطاة (أتت) من الله نفسه؛ وأنها كانت، كما كانت صيغتها آنذاك، موثوقة وأصيلة، وقد أعتبرت معياراً للحكم ليس محلّ جدل. ونفس العبارات وردت بشأن العهدين القديم والجديد؛ وقد أضيفت في معرض الإشارة إلى كل واحد منهما: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... الظَّالِمُونَ... الْفَاسِقُونَ»، وقد جاء هذا التكرار الثلاثي كي يضيفي على العبارة مهابة. وعلى ذلك، فإن الكتب تعينت بشكل موثوق في القرآن على أنها الحكم المطلق للصواب والخطأ، وهذا يعني أن مؤلفه اعتبرها كاملة ونقية من التحريف.

بوسع المسلم التنزيه إشباع فضوله (وعليه ألا يوفر جهداً لفعل ذلك) بأن العهدين القديم والجديد المتداولين الآن بين اليهود والمسيحيين، هما ذاتهما كما كانا قيد التداول فيما بينهم في القرن السابع الميلادي. وبراهين ذلك موجودة بشكل وافر في المخطوطات، والشروحات، والاستشهادات، التي تعود إلى تاريخ أسبق بكثير من مولد النبي. وعندما نطالبه بأن «يحكم بما أنزل الله»، فإننا بذلك نحذّره من عصيان أمر الله، ونلفت انتباهه لثلاً، برفضه الكتب اليهودية والمسيحية، وتجديفه بمحتوياتها المقدسة، يجلب على نفسه العقوبة التي وعد بها محترق كلمة الله؛ وَمَنْ «لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ»، أو حتى يعترف بها، فإنه عرضة لمصير «الكافر»، أو «الظالم»، أو «الفاسق»، الذي أوضحه القرآن بشكلٍ مهيب هنا.

إن القرآن، إضافة لتصديقه الكتب اليهودية والمسيحية، يعلن هنا، فوق ذلك، عن نفسه بأنه حارس أو شاهد «مُهَيِّمٌ عَلَيْهِ»: رقيباً على سائر الكتب

يحفظها عن التغير ويشهد لها بالصحة والثبات» - (البضاوي).

أين هي الكتب المحفوظة بسلامتها، والمعنى بها، والتي يشهد عليها القرآن، إن لم تكن نفس الكتب، التي هي الآن - كما كانت لدى يهود ومسيحيي زمن محمد - بين الأيدي، وتُتلى في كنائسنا وبيوتنا، وما زال ديدنا القيام بذلك منذ قرون سابقة عن زمن محمد؟

لاحظ أن التوراة يُسمى في النص مجداً: ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾.

125. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 59).

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ أَهْلُ تَقْوَمُونَ مِنَّا، إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ؟ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ.

إن محمداً وأتباعه كانوا مؤمنين بالكتب التي نزلت قبل القرآن. وبالتالي، ليس بوسع أحد أن يزعم بأنه تابع مخلص للنبي الآن، ما دام لم يؤمن بما أُنزل من قبل القرآن.

126. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 65-66).

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا، لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا دَخَلْنَا لَهُمْ جَنَاتِ النَّعِيمِ؛

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، لَأَكْمَلُوا مِن فَوْقِهِمْ، وَبِمَن تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ. مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ.

لاحظ بأن النص يشدد هنا وفي مواضع أخرى على أن يهوداً ومسيحيين ﴿أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، كما القرآن. وقد مُنحت أفضل البركات لليهود والمسيحيين الذين سيصنونون إذا أوامر العهد القديم والجديد، كما القرآن:

غفران الخطيئة؛ دخول جنّات النعيم، ومؤونة وفيرة ﴿مِنْ قُوَّهِمْ، وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وقُرْطُ بعض من هؤلاء الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ عَلَى أَنَّهُمْ ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾. والسؤال أَلَمْ يكن أمثال هؤلاء الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ - حسب وصفهم المُعطى من قبل النَّبِيِّ - سينقلون تلك الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ غير المُحرَّفة إلى ذُرِّيَّتِهِمْ متقيدين بالحرص الذي استحقوا عليه هذا التميُّز العالي والمكافأة الكبيرة؟

واحسرتاه! كم كثير من الْمُحَبِّدِينَ بعيدون بسلوكهم عن نبيهم في وقتنا الحاضر، بطريقة حديثهم عن تلك الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ نفسها!

127. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 68).

قُلْ: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ».

حسبما جاء في السيرة التقليدية لابن إسحق فإن الآية تخاطب الْيَهُودَ؛ أو، بالعموم كلاً من الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ. وفي كلتا الحالتين، فإنَّ معناه ثابتٌ ففيها لا يُطلب من أولئك الذين يخاطبهم قبول القرآن فحسب، بل الإيمان وإقامة التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ أيضاً. لقد كان شرطاً أساسياً أَنْ يَتَّبِعَ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيُّونَ الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ كما هي محفوظة لديهم، أي، العهدين القديم والجديد.

كيف للمرء أَنْ يَخَالَ أَنْ الْكُتُبَ أَبْطَلَتْ بِالْقُرْآنِ؟ إِنَّ هذه السورة تنزَّلت بعد سنوات عديدة من هجرة مُحَمَّدٍ إِلَى يَثْرِبَ، وقيل موته بسنوات قليلة، وعندما كانت تعاليم الإسلام قد اكتملت، أو قاربت على الاكتمال. وعلاوة على ذلك، فإنَّ مُحَمَّدًا أخبر في هذه المرحلة وبواسطة الْقُرْآنِ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ أَنَّهُمْ ملزمون بأنَّ «يُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ»، أي، يتقيّدوا بالعهدين القديم والجديد، كما بالوحي الذي أنزل إليه. وكما لو قال: «أنتم تعتمدون على

العدم، إنَّ أساسكم زائفٌ، وغيرُ كافٍ، إنَّ إيمانكم لا يجدي، طالما لم تتقيدوا وتتبعوا الكتب السابقة: إنَّ إعلان إيمانكم عقيمٌ، حتَّى لو تبعتم القرآن، طالما لم تقيموا وتتقيدوا بالتَّوراة والإنجيل أيضاً؛ وبدونهما فإنَّ إيمانكم غير كافٍ.

إذا ما كان أتباع هذه الكتب المنزلة أساسيِّ لسلامة اليهود والمسيحيين، إضافةً للقرآن كذلك (كما تدَّعي هذه الآية بشكل بيِّن)، فهل يمكن للمُحمَّدِيِّين أن ينحسروا جانباً بدون عاقبة سيئة؟ كم نأى هؤلاء بشكل خطير عن تعاليم نبيهم، إنَّ هؤلاء لا يمكنهم الاستغناء عن الكتب التي أثَّرت عليها من قبْلِهِ لأنَّها ﴿نُوراً، وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾، و﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ، وَهُدًى، وَرَحْمَةً﴾، و﴿الْكِتَابُ الْمُنِيرُ﴾، و﴿هُدًى وَنُورٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، و﴿هُدًى وَذِكْرٌ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾، و﴿كِتَابُ اللَّهِ﴾، و﴿وَصِيَاءَ، وَذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ فكيف بعد ذلك يجروون على التحدُّث عنها بسوء، والتجديف بتعاليمها المنزلة؟

قد يكون مفيداً هنا إيراد رواية ابن إسحق بشأن مناسبة الآية:

«وأتى رسول الله رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حريملة، فقالوا: «الست تزعم أنَّك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التَّوراة، وتشهد أنَّها من الله حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أمرتم أن تُبيِّنوه للناس، فبرئت من إحدائكم؛ قالوا: (فإنَّا نأخذ بما في أيدينا، فإنَّا على الهدى والحق، ولا نُؤمن بك، ولا نتَّبِعُكَ). فانزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ! لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى تُقِيمُوا التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ...﴾⁽¹⁾». ⁽²⁾

(1) سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 68).

(2) [سيرة ابن هشام: 1/ 567-568، م.].

نادراً ما تكون الروايات الإسلامية جديرة بالاعتماد بأكملها؛ ولكن إن كانت الرواية أعلاه صحيحة، فإنها تُظهر مُحَمَّداً في القرآن يقرّ بشكل واضح بأصالة وموثوقية كل الكتب المقدسة كما كانت متداولة بين اليهود، وأن نزاعه معهم كان بسبب من مذاهبهم وتقاليدهم المُحدثة والخاطئة فحسب، ونتيجة لرفضهم الاعتراف به، ولأجل إظهار المقاطع التي افترض وجودها في الكتب التي تشهد لصالح دعاويه. ونرى من اللغة التي يستعملها بشكل ثابت حول هذه المسألة، أنه كان، بدون أدنى ريب، يؤيد بشكل كامل وناصح وحي ونقاء الكتب التي كانت عندهم.

128. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 82-85).

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ، تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ. يَقُولُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ؛

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ؟ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ.

فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا؛ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ.

لقد كان اليهود أكثر عداء للإسلام من المسيحيين. ولعل أحد الأسباب الرئيسة لموقفهم كان أن مُحَمَّداً ورغم أنه اعترف بشكل مطلق بكتبهم، فإنه بنفس القدر أقرّ بتلك الكتب المسيحية، وبالرسالة الإلهية ليسوع المسيح.

إنَّ هذا التنازل الإضافيَّ جعل فضيلة المسيح متساوية مع اليهود. ومن جهة أخرى، لا شك أنَّ المَسيحيِّين كانوا راضين لدى اكتشافهم أنَّ مُحَمَّدًا - وهو أمر ينسجم تماماً مع منظومتهم الخاصة - اعترفَ بكافة الكتب السابقة كما الأنبياء السابقين، وبكلِّ ما يعود إليهم وما يعود لليهود. وبعضهم، علاوة على ذلك، آمن برسالة مُحَمَّدٍ، وقد عبَّروا عن أنفسهم بلغة متقدِّمة في النصِّ.

لاحظ العبارات الإطرائية التي يتحدَّث بها مُحَمَّدٌ عن المَسيحيِّين بالعموم، هنا وفي أمكنة أخرى، وحَتَّى بصدد من لم يعتنق الإسلام. إنَّ حالهم الأرفع وُصف هنا بأنهم قساوسة ورهبان، وأنَّهم لا يَستَكْبِرُونَ. ولا يَتهُمون قطَّ بأنهم أساءوا تفسير الكتب، أو عبَّروا الكلِّم عن مواضعه.

129. سُورَةُ الْمَائِدَةِ (5/ 110 - 111).

إِذْ قَالَ اللَّهُ، يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ، وَعَلَى الْوَلَدِ تَكَ، إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ، تَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا؛ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ، وَالْحِكْمَةَ، وَالتَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ؛ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي، فَتَنفُخُ فِيهَا، فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي؛ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ، وَالْأَبْرَصَ، بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي؛ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ: «أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَّسُولِي (أي يسوع)»، قَالُوا: «أَمَنَّا؛ وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

130. سُورَةُ التَّحْرِيمِ (66/ 12).

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ، الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا؛ فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا، وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا، وَكُتِبَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.

131. سُورَةُ التَّوْبَةِ (9/ 111).

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالْقُرْآنِ.

لقد تنزلت الآية في آخر سورة تلاها مُحَمَّدٌ، وفي وقت تمكن الإسلام بواسطة السيف من الانتشار فوق القسم الأعظم من الجزيرة العربية.

لعل من الجائز أن يتم إيراد إشارة إلى المقاطع من الكتاب المقدس حيث هناك نزاع روحي، عندما يتحدث عن: «قتال الصالح للإيمان». وبالنسبة لدروس الإنجيل يجب على المسلم التقى أن يتبع بشكل أساسي الذي يختلف بهذا الشأن عن تلك الموجودة في القرآن. إن أسلحة المسيحية روحية. إن القوة لا تستعمل في سبيل نشرها. فعندما وقف المسيح في مقعد محكمة بيلاطس، فإنه قال: «إن مملكتي ليست في هذا العالم؛ ولو كانت مملكتي من هذا العالم، فإن عبيدي كانوا سيقاتلون كيلا ألا أرسل إلى اليهود، بيد أن مملكتي ليست من هذه الحياة». إن هذه الملاحظة أضيفت فقط من أجل صون القارئ المسلم عن احتمال الاعتقاد بأن الإنجيل يشجع ويقر القتال أو الإكراه من أجل تأييد الديانة بأي شكل.

القسم الثالث

خاتمة

وَإِذْ أَنْتَهَيْنَا مِنَ الْإِسْتِشْهَادَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ فَإِنَّا نَتَّبِعُهَا بِبُضْعِ ملاحظات كي
يتفكر بها الْمُحَمَّدِيُّ الْجَادُّ والصادق الذي يدرس الْقُرْآنَ على أَنَّهُ الحقيقة
الكاملة التي يُفرض على الْمُحَمَّدِيِّينَ الإقرار بها، والاجتهاد والصلاة لله:

سُورَةُ الْمُزْمَلِ.

فُمُ اللَّيْلِ، إِلَّا قَلِيلًا؛

نِصْفُهُ، أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا،

أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا.

.....

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ...⁽¹⁾

سُورَةُ الْفَتْحِ

تَرَاهُمْ (المسلمين) رُكْعًا سُجَّدًا، يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا. يَسِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ آثَرِ السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ...⁽²⁾

(1) [سُورَةُ الْمُزْمَلِ: 73 / 2-6، م.]

(2) [سُورَةُ الْفَتْحِ: 48 / 29، م.]

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.
وَإِذْ ذَكَرَ رَبُّكَ فِي نَفْسِكَ نَصْرُكَ تَصَرُّعًا وَخِيفَةً، وَدُونَ الْجَهْرِ، مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْأَصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ.⁽¹⁾

إنَّ الملاحظات التالية موجَّهة إلى الْمُحَمَّدِيِّينَ المجتهدين والنزيهين، الذين
تنطبق عليهم الأوصاف أعلاه. وإني لأسألهم قراءتها بقلب مفتوح، مع الصلاة.

أولاً - إنَّ المجموعة كاملة وغير متحيِّزة.

لَمْ يَكُنْ هدفُ الْمُؤَلِّفِ في جمع المجموعة بحثاً عن الآيات التي تحابي
الْكُتُبَ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ، بل كَانَ يبغي ببساطة إدراج كُلِّ الآيات الموجودة
في الْقُرْآنِ والتي تشتمل على أيِّ ذكرٍ كَانَ لهذه الْكُتُبِ، أو تلميح لها. ووفق هذه
النظرة، فَإِنَّ الْكاتب كَانَ يفحص بعناية كامل الْقُرْآنَ مراراً، ويدوِّن كُلَّ المقاطع
ذات الطبيعة المشار إليها. وقد ضُمَّ إليها كُلُّ ما كَانَ يبدو أَنَّهُ يتضمَّن أَقلَّ تعلقٍ
بالموضوع. وفي حال إغفالٍ أيِّ نَصٍّ، فَإِنَّ ذلك يعود إلى الخطأ الناشئ عن
الإهمال، لا وفق أي خِطَّةٍ لتجاوز المقاطع المفترض أَنَّها سلبية. إِنَّ الْمسلم،
إِذَا، مثل الْيَهُودِيِّ وَالْمَسِيحِيِّ، يمكنه قبول المجموعة على أَنَّها عرض غير متحيِّزٍ
وكامل للشهادة التي يُدلي بها الْقُرْآنُ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسَةِ بعهدَيْهَا القديم والجديد.

ثانياً - وجود وتداول المهدِّين القديم والجديد في زمن مُحَمَّدٍ.

إِنَّ كُلَّ مَنْ يقرأ الْقُرْآنَ بانتباه، لا بدَّ وَأَنْ يلاحظ المناسبات الكثيرة التي
يُشار فيها إلى كُتُبِ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ الْمُقَدَّسَةِ. لقد سُميت بأسماء واسعة

(1) [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 7 / 204 - 205، م.]

الاختلاف: كتاب الله؛ كلام الله، التوراة، الإنجيل، إلخ.

كما وصفت بأنها وحي من الله، وأنها تنزلت قبل مُحَمَّدٍ، بعبارات مثل: لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّهِ، مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، إلخ. ويرد ذكرها في صفحات القرآن لا كما هي موجودة في زمن مُحَمَّدٍ فحسب، بل كما كانت شائعة التداول بين اليهود والمسيحيين. وهذا يُبرهن عليه بأمثال هذه العبارة: معهم؛ أو مَا عِنْدَهُمْ؛ ﴿الذين (اليهود) يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (ف 34)؛ و﴿وَقَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ (ف 63)؛ و﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (ف 69)؛ و﴿هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ (ف 80). ولهذا ففي إحدى المناسبات (ف 107). فَإِنَّ مُحَمَّدًا «دعا اليهود إلى الكتاب»، أي، طلب الرجوع فعلياً إلى كتبهم في حضور كلا الفريقين، حيث كان يجب أن يُؤتى بها، وأن تُقرأ في قَرَاتِيْسٍ؛ وفي مناسبة أخرى، فإنهم دُعوا إلى الإتيان بنفس الكتب من أجل تسوية قضية موضع نزاع؛ (ف 115).

لقد حُضَّ كُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ عَلَى التَّصَرُّفِ وَالْحُكْمِ فَقَدْ لَكْتُبُهُمْ، وهذا يتضمن وجود نسخ من الكتب المقدسة قيد التداول بينهم، والتي كانوا يستطيعون، بدون أدنى صعوبة، الرجوع إليها لكي يتصرفوا ويحكموا بها أيضاً. وقيل لهم أيضاً إِنَّ دِينَهُمْ بَاطِلٌ مَا لَمْ «يُقيموا»، أو يَتَّبِعُوا كَلَامَ مِنَ الْكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ، والتي منها يمكن استخلاص نفس النتيجة؛ وعبثاً سيكون الإصرار على اتباع كتب ليس من السهل الوصول إليها بالنسبة لقسم كبير ممن يعتقدون هاتين الديانتين.

(1) [سُورَةُ يُوسُفَ: 10 / 94، م.]

(2) [سُورَةُ الْأَعْرَابِ: 7 / 169، م.]

(3) [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2 / 75، م.]

(4) [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: 2 / 113، م.]

وكثيراً ما احتكم مُحَمَّدٌ إلى الكُتُبِ برهاناً على دعاويه الخاصّة. وما كان سيفعل ذلك، لولا أنّها كانت موجودة وقيد التداول العامّ في عهده.

إذاً، يحقّ لنا الافتراض أنّ المصطلحات في القرآن التي تُستعمل بصدد كُتُبِ اليهود بالعموم مثل: الكِتَاب - الذِّكْر - الذين أوتوا نصيباً من الكِتَاب، تعني العهد القديم كما كان قائماً ومعتزفاً به من قبل اليهود على أنّه كتابهم المُقدَّس، في زمن مُحَمَّدٍ. إنّ مفردة ﴿التَّوْرَة﴾ كانت متداولة أحياناً بمعنى واسع، وأحياناً تشير إلى الكُتُبِ المُوسَّوَّة الخمسة. وتقتصر مفردة ﴿الزَّبُور﴾ على مزامير دَاوُد.

وعلى نفس المنوال، يرد ذكر كُتُبِ الْمَسِيحِيِّين المُقدَّسة في القرآن تحت تسمية عامّة: ﴿الْإِنْجِيل﴾، وبدون شكّ، تشير المفردة إلى كِتَاب قيد التداول العامّ على أنّه الكِتَاب المُلهم إلهياً بين الْمَسِيحِيِّين، أي، إلى كامل العهد الجديد، والذي حسب القرآن قد نزلَ على يَسُوعَ من اللّهِ، وقد علّمه إلى حواريه (كما يجب أن نفترض من هذه النظرة).

إنّ هذه الاستدلالات قابلة للاستنتاج بالضرورة من الطريقة الكاملة والثامّة التي يُشير بها مُحَمَّدٌ إلى الكُتُبِ كما آمن بها اليهود والمسيحيون، وكما تُداولت فيما بينهم.

كثيراً ما يُطلب الإيمانُ بكامل الكُتُبِ اليهوديّة والمسيحيّة، والذين «يؤمنون بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» فإنّهم يندرون بالعقوبة الملائمة - انظر الفقرتين (63) و(102).

ثالثاً - القرآن يشهد على نزول الكُتُبِ اليهوديّة والمسيحيّة.

إنّ الأصل الإلهيّ للكُتُبِ اليهوديّة والمسيحيّة، كما هي موجودة وقيد التداول في عصره، يصدّق عليه مُحَمَّدٌ في كلّ مكانٍ من القرآن بدون تحفُّظ،

في عباراتٍ مكرّرة ونمطيّة مثل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إلخ. وبالفعل فإنّ الهدف الحقيقيّ في القرآن وكما يُشار إليه في مواضع كثيرة أن يكون تصديقاً للكتب المنزلة من قبل. وهذا ما جاء في التنزيل المزعوم الذي قيل عنه أنّه قد جاء منذ سحيق الأزمنة، يشير بأنّ نبياً سيأتي (مُحمّد) ووصف بشكل رئيس على أنّه: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ (ف 113). كذلك أنظر الملاحظة الرئيسة للجنّ، الذين كانوا يستمعون إلى القرآن، واصفين إيّاه إلى رفاقهم بأنّه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (ف 17).

إنّ الوحيّ التام يُنسب باستمرار إلى جميع الكتب المقدّسة، التي «نزلت» - «نزل الكتاب بالحق» - «أوتي»؛ والذين تلقّوها هم الأنبياء الذين «أوحى» إليهم.

ولقد قيل مراراً، مدحاً للقرآن (الذي زعم أنّه التنزيل الأرفع)، بأنّ وحيّ مُحمّد هو من نفس الجنس الذي جاء الأنبياء السابقين؛ الفقرات: (22، 60، 103، و110).

لقد وُصفت الكتب اليهوديّة والمسيحيّة هنا بنفس نعوت القرآن، بالصيغة الدالّة على الأصل الإلهيّ، الفقرات «كِتَابَ اللَّهِ»: (79، 107، و124)؛ و«كَلَامَ اللَّهِ» (ف 69)؛ الفرقان (الذي يفرّق بين الحقّ والباطل)، (ف 48 و68).

وكذلك فإنّ محتويات الكتب المقدّسة يُستشهد بها بشكل متكرّر على أنّها تحتوي على مرجعيّة إلهيّة وقاطعة.

قصارى القول، إنّ الشّهادة على وحيها هي على طول القرآن الأكثر كمالاً والأكثر جلاءً التي يمكن تصوّرها.

رابعاً - إنَّ القرآنَ يُبَيِّنُ على الكُتُبِ اليَهُودِيَّةِ والمَسِيحِيَّةِ .

إنَّ القيمةَ الأعلى يعزوها القرآنُ إلى الكُتُبِ اليَهُودِيَّةِ والمَسِيحِيَّةِ . فهو يتحدثُ عنها بتبجيلٍ . ليس ثَمَّةَ عبارة واحدة في القرآن تتصل بها ، إلا وكانت تُنطقُ باحترام وتبجيل عميقين .

إنَّ خاصِيَّتَهُم السماويَّةَ ، والبركات المتأثية من الوحي الذي تشتمل عليه ، يمكن أن تُستتج من الجمل التالية التي ترجع إلى عهود مختلفة من نبوة مُحَمَّد .

إنَّ كِتَابَ مُوسَى ﴿إِنَّمَا وَرَحْمَةً﴾ (ف 16 و 31) . وكتابات الأنبياء الذين سبقوا مُحَمَّداً منظومة من ﴿الكِتَابِ الْمُتَنِينَ﴾ (ف 12) . و﴿الكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (ف 18 و 119) .

إنَّ الكِتَابَ الذي ورثه بنو إِسْرَائِيلَ هو ﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (ف 25) .

إنَّ الوحيَ الذي جاء به مُوسَى هو ﴿نُوراً ، وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ (ف 37) .

وهو ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ، وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً ، لِّعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (ف 41) ؛ و﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ، وَهُدًى ، وَرَحْمَةً ، لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (ف 43) .

إنَّه ﴿الْفُرْقَانُ ، وَضِيَاءٌ ، وَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ؛ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ، وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ شَافِقُونَ﴾ (ف 48) .

إنَّهم أولئك الذين يؤمنون بالوحي الذي نَزَلَ سابقاً ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ كما يؤمنون بالقرآن ، ﴿أَوَّلِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأَوَّلِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (ف 66) .

وَالْيَهُودُ كَانُوا يَحْزُونَ «شَهَادَةً مِنَ اللَّهِ» (ف 82).

والله ﴿أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ؛ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (ف 105).

و﴿الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ، وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (ف 124).

بهذا الشكل، فَإِنَّ الْكُتُبَ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ قُرِئَتْ لاحتوائها النور الروحاني والهدى للناس، وتذكرو وموعظة للمتقين؛ كما أَنَّهَا ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، وشرح لكل قضية، وهي ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾. ما هي عبارة الإطراء الأعلى، وما هو أقوى محرض على دراسة وأتباع دقيق للكتب المقدسة، الذي قد يرغب به المسلمون أكثر مما يتضمنه القرآن على هذا النحو؟

خامساً - مُحَمَّدٌ احْتَكَمَ إِلَى الْكُتُبِ، وَعَلَّمَ أَتْبَاعَهَا.

كثيراً ما احتكم مُحَمَّدٌ إِلَى الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ، وفرض طاعتها على أصحابها.

1- أَشَارَ مُحَمَّدٌ مِرَاراً فِي الْقُرْآنِ، إِلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ بِحُوزَتِهِمُ الْكُتُبُ عَلَى أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ لِّصَالِحِ رِسَالَتِهِ. وَزَعَمَ أَنَّ فِي كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ بَرَهَانٌ فِي صَالِحِهِ، وَأَنَّ مَحْتَوَيَاتَهَا تَتطَابَقُ مَعَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْمَفْسِّرِينَ الْمَخْلُصِينَ الْمُتَوَرِّينَ بِنُبُوئِهَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ وَيُوحِيهِ، وَيَتَهَجُونَ فِي اعْتِرَافِهِمْ. انظر الفقرات: (7، 13، 15، 35، 39، 45، 54، 56، 57، 61، 65، 75، 84، إلخ).

2- إِنَّ ضَرُورَةَ إِتْبَاعِ، بِإِخْلَاصٍ وَرِعٍ، أَوَامِرِ كُلِّ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ مَغْرُوسَةٌ بِشَكْلِ صَارِمٍ فِي الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ؛ وَالْإِيمَانُ بِكَامِلِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ مَطْلُوبٌ

من جميع المسلمين على أنه شرط لا غنى عنه للإيمان.

وقد وعد أولئك الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ﴾ بنواب، ويتضح من السياق أن الكتاب المعني هو العهد القديم - الفقرة (64). وكذلك ﴿الذين كذبوا بالكتاب، وبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ؛ إِذِ الْأَغْلَاقُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَالسَّالِيلُ يَسْجُونَ؛ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (ف 26).

وإن الذي يكفر بأي من كتب الله ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (ف 101). وإن الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض فإن جزاءهم ﴿يُخْزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (ف 73).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ؛ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ؛ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا؛ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (ف 102).

وفي آية طلب من اليهود أن يأتوا بالتوراة، فيتلوها من أجل تسوية مسألة موضع تنازع (ف 115). وفي نص آخر ورد قوله: ﴿يُذَعَّرُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ (ف 107).

لا يؤمر اليهود والمسيحيون فحسب باتباع التوراة والإنجيل، بل يُنذرون بشدة بأن إيمانهم سيكون باطلاً، ويقول: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (ف 127). وإن كل من لم يحكم بما أنزل الله (بما في ذلك الكتب السابقة) فإنه يعلن بأنه كافر، وظالم، وفاسق (ف 124).

3 - وعلى الرغم من أن اتباع أوامر الشرائع اليهودية والمسيحية، كما هي مشروحة في كتب العهد القديم والجديد المقدسة، مفروضة وفق النص القرآني على اليهود والمسيحيين فحسب، فإن جميع المحمديين المخلصين، مدعوون

للإيمان بتلك الكتب المُقدَّسة على قدم المساواة مع القرآن؛ - الفقرات: (24، 26، 59، 66، 81، 101، 102، 103، و118). إن استحسان اللّو والثواب العظيم يُوعَد بهما الذين يؤمنون بكامل وحيه بما في ذلك الكتابات اليهودية والأنبياء والرسل المسيحيين (ف 90، و102). وأما الذين يكفرون بأي جزء فإنهم يُعلنون بأنهم ضلُّوا ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (ف 101)؛ وأنهم الكافرون حقاً، الذين أعدَّ الله لهم ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (ف 102 و90).

إذاً، لا يبدو أنه بوسع المسلم الصادق أن يتجاهل ما يؤسّس الكتب اليهودية والمسيحية - أو على الأقل يهمل ويرفض - بدون أن يعرّض سلامته للخطر حسب القرآن نفسه.

لنلاحظ بانتباه أن الكتب المُقدَّسة، والتي يُطلب من المسلمين كافة الإيمان بها، هي كتب العهد القديم والجديد والتي يعترف بها اليهود والمسيحيون، بغیر استثناء، في زمن مُحمَّد على أنها منزلة من السماء. ولا يمكن أنه كان ثمة توراة أو إنجيل مختلفان كانا موضع إشارة القرآن بشكل دائم. إن مكَّة وتَربَّ لم تكونا تقعان في زاوية من العالم حيث يُحتمل أن كتباً مقدَّسة أخرى قُصِدت غير تلك التي تُداول بشيوع في مكان آخر. لقد توطن اليهود والمسيحيون في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربيَّة، مثل اليمن، ونَجْران، وتيماء، دُومة الجندل، إلخ، ومن جميع الأطراف ارتادوا سنوياً أسواق عُكاظ، مجنَّة، ذي المجاز، إلخ. وكانت الرحلات التجارية تنطلق من مكَّة دورياً إلى سوريا، واليمن والحبشة، وهي أماكن كانت المسيحية فيها راسخة اليهودية معروفة. وبعض العرب بلغوا بلاطي قيصر وقورش. وقُبيل ادِّعاء الرسالة النبوية من قبل مُحمَّد، فإن عثمان بن الحويرث، مواطناً من مكَّة، لاذ إلى القسطنطينية، من حيث كان قد أتى مسيحياً معتمداً. وإن بلاطي الحيرة والسلالة الغسانية المسيحيين، كلاهما كانا يحاذيان الجزيرة العربيَّة من الشمال، وحيث كان العرب يكثرون

التردد. ومُحَمَّدٌ نفسه زار سوريا مرّتين. وأكثر من مئة من أتباعه وجدوا ملاذاً آمناً وكرماً لدى بلاط النجاشي الحبشي، قبل وبعد الهجرة. وكان لدى مُحَمَّدٍ من بين معتنقي الإسلام أتباع يَهُودٌ ومَسِيحِيّون في يَثْرِبَ. وفي السنة السادسة للهجرة، بعث مُحَمَّدٌ رسلاً إلى البلاطات الرومانية، والفارسية، وإلى الحبشة ومصر، وإلى الأمير الغساني، وإلى رؤساء مَسِيحِيّين آخرين.

وبذلك، لم يكن هنالك من حاجة للتواصل بين مُحَمَّدٍ وَيَهُودَ ومَسِيحِيّ جهات العالم المتحضّر. وبالتالي، فحيثما ذُكِرَ «الكتاب» أو «الكتب» التي كان يَهُودٌ والمَسِيحِيّون يقرؤونها، والرّساي التي كان عليهم أتباعها بشكل ورع، والأحكام الإلهية التي كان عليهم الاهتداء بها دائماً، فإنّه كان يقصد - وليس بإمكانه ألا أن يعني - أن العهد القديم والجديد قد حُفظا بين كامل الجمهور من يَهُودَ والمَسِيحِيّين، وقرأ في كنائسهم، وكنسهم، وأديرتهم، وأنهما كانا يدرّسان في مجالسهم الخاصة.

سادساً - الاتّهامات ضدّ يَهُودَ.

اتّهم يَهُودَ مراراً في القرآن بأنهم قوم عصاة ومستكبرون كما كان آباؤهم، وأنهم حرّفوا معنى كتبهم المقدّسة.

عندما غادرَ مُحَمَّدٌ إلى يَثْرِبَ، فإنّه توقّع أن يجدَ يَهُودَ، الذين كانوا يسكنون بأعداد كبيرة في الجوار، منحازين إلى قضيتّه، فدخل في معاهدة وثيقة معهم، نسخة منها أو على الأقلّ جوهرها بقي محفوظاً في تواريخ حياته. بيد أن يَهُودَ إذ رأوا أن مُحَمَّداً كان يؤمن في مَسِيحية يسوع، وفي عقائد أخرى تتعارض تماماً مع إيمانهم، فإنّهم شرعوا يناصبون قضيتّه العداء، ورفضوا الإقرار بأنّ ثمة أيّ نبوءة، مهما كانت، في كتبهم تنطبق عليه. وتمسّكوا بأنّ مسيحهم يجب أن يكون يَهُودِيّاً، وليس من سلالة إسماعيل؛ ورفضوا بشكلٍ تامّ نبيّ

الجزيرة العربية. وبهذا فإنّ عداوةً مريرة نشأت بينهما. وقد نجح مُحَمَّدٌ في اغتيال العديد من معارضيه الألداء. وفي الختام شنّ الحرب عليهم، وهجر قبيلتين كاملتين منهم، بني النضير وبني قينقاع، وذبح جميع رجال قبيلة ثالثة، بني قريظة (ما بين 600 إلى 800 شخص) وأسر نساءهم وأطفالهم.

قبل أن يتمّ تكميم أفواههم على هذا الشكل بالسيف، فإنّ اليهود سعوا إلى مقارعة مُحَمَّدٍ بالحجّة، فقدّموا مقاطع من الكتاب دعماً لموقفهم. لكنّ مُحَمَّدًا رفض الإقرار بصديقي وإخلاصي خصوصه في النقاش. وأنهمهم بتحريف معنى كتبهم وبفهم معانيها بشكل غير دقيق. وقد مثلهم بأنهم مثل حمارٍ يحمل كُتُباً قيّمة؛ وأنهم وإذا كان لديهم العلم الإلهي، لكن ليس لديهم مثقال ذرّة من فهم لها (ف 93). وأنهم حمقى، أصاب الجهل بصيرتهم بالعمى، وأنهم ذوو رأي مسبق، لم يكن بوسعهم إدراك الحقيقة المتزلة في كتبهم. إنّ الاتهام الذي لا يختلف جوهرياً عمّا كان يقوم به المسيحيون على مدى تسعة عشر قرناً ضدّ اليهود. كلاهما كانا يؤمنان بالعهد القديم، بيد أنّهما اختلفا بيون واسع بشأن تفسيره.

لقد اتّهم مُحَمَّدٌ يَهُودَ يَثْرِبَ، بأنهم يوردون مقاطع مجرّاة من كتبهم، وأنهم يعرضونها مقتطعة من سياقها أو أنّها موضوعة في سياق خاطئ، وبالتالى بتحريف للمعنى الصحيح (ف 69، 96، 122، 123). وقد زعم أنّهم تحدثوا بشأن مُحَمَّدٍ بعبارات لها معنى مزدوج ومهين (ف 111). وأنهم قدموا آياتٍ نظمها بشرٌ مدّعين أنّ لها مرجعيةً إلهيةً، وربما كانت كتاباتهم الحبريّة أو شروحاتهم (ف 72 و 111). وأنهموا بأنهم أخفوا النصوص أو النبوءات التي في صالح مُحَمَّدٍ ودعاويه. أو أثروا عدم نشرها، «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ: لَا يُغَيِّرُونَ لِلنَّاسِ»⁽¹⁾.

(1) [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: 81 / 3، م.]

أكثر من ذلك لا نجد مُحَمَّداً يَتَّهم حَتَّى أعداءَهُ يَهُودَ يَنْزِرَب. إِنَّ الاستنتاج من اتِّهام «الإخفاء»، يعني إزالة أو محو المقاطع من المخطوطات، هو عديم الأساس بالجملة.

فيما يتعلَّق بتغيير أو تحريف نسخهم من الكُتُب المُقدَّسة، لا يوجد حتَّى آية واحدة أعربت، ودعمت بوضوح الاتِّهام. ولو فرضنا أنَّ أيَّ مقطع يحمل هذا المعنى، فإنَّ الفحوى العامَّة لِلْقُرْآن وشهادته الساطعة من أوَّلِه إلى آخره في صالح أصالة وموثوقيَّة الكُتُب اليَهُودِيَّة كما المِسيحيَّة، سترهن أنَّ مثل هذا المعنى لم يكن الذي قصده مُحَمَّد.

هل كَانَ النَّبِيُّ سيحتكم إلى تَوَارِثٍ محرَّفة؟ هل كَانَ سيشهد بشكلٍ دائمٍ على حقيقة كتب مُوسَى المقحمة؟ هل كَانَ سيأمر بأنَّ تسوَّى الخلافات بوحيٍ متقدِّم زائف؟ أو كَانَ سيدعوهم إلى تقديم قراطيس كُتُب محلِّ شكٍّ، والتلاوة منها، بحيث أنَّ الخلاف بينهم وبينه يسوَّى بشكلٍ نهائيٍّ؟ هل كَانَ سيعلمُ اتِّباع نَصٍّ مزيفٍ؛ ولكانَ قَالَ أيَّ شيءٍ ما عدا أصالة الكِتَاب، وإنَّ إيمانَ اليَهُودِ كَانَ غيرَ ذي جدوى ما لم «يقيموا» الكِتَاب ويتبعوا الوصايا؟

وإضافة إلى ذلك من الملاحظ أنَّ الاتِّهامات المستمرَّة في الْقُرْآن (مهما كانت طبيعتها) هي من البداية إلى النهاية مقتصرة على اليَهُود. وليس ثَمَّةُ أيَّ آيةٍ في كُلِّ الْقُرْآن، يمكنُ أَنْ - بأيِّ معنىٍ محتملٍ - تلقى أدنى شكٍّ على المِسيحيِّين بتهمة تغيير: إنَّ كَانَ بصدد إنجيلهم أو بصدد نسخهم من الكِتَاب اليَهُودِيَّ. إنَّ أَقصى اتِّهامٍ موجَّه إليهم هو أنَّهم: «نَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ»، أيَّ أنَّهم سقطوا في المذاهب والممارسات الضالَّة (ف 122).

ولنفترض لبرهة أنَّ العهد القديم تعرَّض لإفحام من قِبَل أعداءٍ مُحَمَّديٍّ، وأنَّ مساعيهم طالت حتَّى العهد الجديد، ألم يكن بعضُ اليَهُود والمِسيحيِّين

الصالحين سيقومون بالاحتفاظ وينشر نسخ من الكتب غير المحرقة؟ هذه الكتب التي كان يحتكم إليها مُحَمَّدٌ دائماً، والتي تحتوي، كما زعم، على شهادة قيّمة في صالح القرآن، ورساليته، والإسلام. وعندما شرع أتباع مُحَمَّدٍ بإسهار السيف، وزحفوا بجيوشهم الظافرة، فإنهم ما كانوا ليتجاهلوا مثل هذا الطريقة الشديدة الحصافة والإقناع من أجل كسب اليهود والمسيحيين بإحالتهم إلى الحقّة في صالح الإسلام الموجودة في كتبهم الخاصّة غير المحرقة. لا شك أنّ المُحمّديّين الأوائل ما كانوا سيفرطون بمثل هذا البرهان المتين لدعويّ نيّهم. إلى جانب ذلك، فإنّه فيما يتّصل بالمتحوّلين إلى الإسلام من بين اليهود والمسيحيّين، فإنّ الاحتفاظ بالنصّ المحض وغير المحرّف للعهد القديم لن يكون مرغوباً فحسب، بل ضرورياً. لقد أمرهم النبيّ أن يؤمنوا، وأن يتبعوا، وأن يحكموا بهذه الكتب؛ وبالتزامهم بذلك، فإنهم يُوعدون ﴿كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ و﴿نُوراً﴾ خاصّاً. وبكل تأكيد، لو كان ثمة شكوك تساور هؤلاء بأنّ إخوانهم غير المتحوّلين سيزيّفون كتبهم، فإنهم كانوا تطلّعوا إلى الاحتفاظ بالنسخ الأصليّة، لا لاستعمالهم الخاصّ، بل لإرضاء وتعليم أطفالهم أيضاً؛ مثلما يحتفظ المسيحيّون ويعلمون الكتب اليهوديّة، ويشيرون ويعلمون قوّة نبوءات المسيح الموجودة فيها، لا بل ألا يسعنا توقّع أنّ المُحمّديّين المهتدين من اليهوديّة والمسيحيّة سيتذكّرونها بحنين ويحفظون الكتب السابقة؟

إنّ وجود أمثال هؤلاء اليهود والمسيحيّين الصادقين لا يمكن أن يكون محلّ شكّ من جانب السائل المُحمّديّ. ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، وَيَبْغِدُونَ﴾ (ف 62). و﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (ف 117). و﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ (ف 126). انظر كذلك الفقرات: (91، 98، و121). ومن جانب آخر، هل ثمة لهؤلاء من فائدة في تزييف الكتب

المُقدَّسة؟ وحتى لو كان هنالك أيُّ دوافع شريرة، ألن يمنعه، «القُسْطُ»، والاستقامة، والصدق، وتقوى الله من التفكير بمثل هذه الآثام من أن تجول في خواطرهم؟ وأين هي تلك النسخ المُحفوظة غير المحرَّفة التي احتفظ بها هؤلاء اليهود والمسيحيون الصالحون والمؤمنون.

لو كان ثمة ظلٌّ من الشك بأنَّ الكتب المُقدَّسة تعرَّضت لعبثٍ في أيِّ موضع، فإنَّهم كانوا سيحتفظون بالنسخ غير المحرَّفة. إنَّ الحقيقة هي أنَّ الافتراض كان بدون أساس على الإطلاق. ولم يكن هنالك مثل هذا الظنُّ. وبالتأكيد لم يخطر ببال مُحمَّد؛ ولا جرى في خلد أتباعه المباشرين البتَّة. إنَّ أيَّ اتِّهام بحقِّ اليهود والمسيحيين بأنَّهم حاولوا تحريف كتبهم المُقدَّسة كان غير مُفكِّر فيه لسنوات عديدة بعد ذلك العهد؛ وفي الواقع، إنَّ ذلك جرى عندما وجدَّ العلماء المُحمَّديون أنَّ القرآن يختلف عن تلك الكتب، فعمدوا بأنفسهم إلى مثل هذا الافتراض الذي لا أساس له، كونه الوسيلة الأبسط للتهرُّب من الصعوبة.

مجدِّداً، إنَّ قبولَ مثل هذا الاتِّهام (فرضاً من أجل الجدل فحسب) لا يمكنُ أن يمتدَّ أبعد من يَهُود يَثْرِبَ. لقد كانوا الوحيدين المعادين لمُحمَّد، وعليهم تنطبق التأكيدات في القرآن. بيد أنَّ الكتب اليهودية والمسيحية - والتي يُصادق عليها كما هي في كلِّ جزءٍ من القرآن - كانت في متناول الملايين، غير اليهود، وعلى امتداد الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية؛ وفي المملكة الحبشية، والحيرة، وأرمينيا، ومصرَ ولدى إمارة الفُسنَّيين في سوريا، إلخ. إنَّ الاتِّهام أو الشكَّ بالعبث العدائي، لا يجب أن يُوكَّد بشكلي جائرٍ للغاية، ولا يجب أن يشمل، بأيِّ شكل، هذه الجماعات الكبيرة؛ وليس من اليهود فحسب، بل مسيحيي ما وراء الجزيرة العربيَّة.

من ناحية ثانية، وبعد ستينَ على موتِ مُحمَّد، فإنَّ جيوش المسلمين

اجتاحت سوريا، مكان مولد اليهودية والمسيحية، والتي تحتوي على عدد لا حصر له من نسخ العهد القديم والجديد في الكنائس، والكُتُب، والأديرة، وفي البيوت الخاصة. وبعد سنوات صارت مصر في حوزة المُحمّدين، وبعد ذلك بقليل الساحل الشمالي لإفريقيا - البلدان التي كانت مليئة أيضاً بالمسيحيين، والأديرة، والكنائس - ومن الممكن تصوّر (لحيازتهم القوة العليا على اليهود والمسيحيين الذين يُخضعون يومياً بحدّ السيف؛ ووجود المدن، والبلدات، والأديرة في حوزتهم، والنسخ اللانهاية من الكُتُب المُقدّسة الموضوعة تحت تصرّفهم) أنّ المسلمين ما كانوا ليفوّتوا الفرصة للحصول على النسخ الصحيحة من العهد القديم والجديد، وبهذا كان سيضيفونها إلى براهينهم المتعلقة برسالة النبي، ولو كان، فعلاً، ثمة أقلّ ريبٍ خالَج صدورهم بأنّه في أيّ مكان تعرّضت الكُتُب للعبث، أو أنّ تلك الكُتُب قد (كما يريدنا علماء المسلمون أن نعتقد) احتوت أيّ شهادة على رسالة نبيهم ألم يكن حينها وقت لإيجادها؟ إنّ غياب مثل هذه المحاولة لهو برهان مقنع بأنّ الشكّ بصدد التعامل الشرير لم يخامر أحداً.

ليس ثمة من مفرّ إذاً، بالنسبة للمؤمن المخلص بالقرآن، من الاستنتاج بأنّ الكُتُب اليهودية والمسيحية، كما كانت متداولة عبر العالم المسيحي، في أيام مُحمّد، كانت كلمة الله الأصيلة وغير المحرّفة.

سابعاً - الكُتُب المُقدّسة في زمن مُحمّد هي نفسها الموجودة حالياً.

إنّه لا يتصلّ بمهمّتنا الحالية الماضيّ قديماً نحو البرهان على أنّ الكُتُب المُقدّسة في زمن نبوّه مُحمّد (610 - 632 م) كانت نفس الكُتُب الحالية الموجودة بين أيدي اليهود والمسيحيين. لكنّ، لفائدة المسلم المخلص والمتطلّع للمعرفة، فإنّ النقاط التالية قد تفتح له أفق بحثٍ إضافيٍّ.

ثُمَّ الآن مخطوطات باقية يعود تاريخها إلى ذلك العصر المذكور أعلاه، وهي متوفرة للفحص المدقق لأي باحث. وثمة ترجمات من العهد القديم والجديد، مترجمة قبل العصر موضع البحث. إن الترجمة السبعينية للعهد القديم كانت منجزة قبل عصر المسيح. وما زال لدينا «أوكتابلا» لأوريجن والمجموع قبل أربعة قرون من حياة مُحَمَّد، والذي يحتوي ترجمات مختلفة من العهد القديم مقارنة في أعمدة متوازية.⁽¹⁾ ويوجد للعهد الجديد ترجمات باللاتينية، والسريرية، والقبطية، والأرمنية كانت معدة قبل عهد بعيد من زمن مُحَمَّد، ويمقدور الباحث المسلم الوصول إليها، حيث يمكنه أن يرضي نفسه بأنه لم يكن ثمة من تغييرات في النص الأصلي منذ زمن النبي.

وأخيراً، ثمة شواهد من الكتب المقدسة، وإحالات إليها لا حصر لها، محتواة في الكتابات اليهودية والمسيحية لعصور خلت قبل مُحَمَّد، وردت لدى: يوستين مارتير، إيرينوس، كلامينس، تيرتوليان، أوريجن، سيريان، يوسيبوس، كريسوستوم، كيريلوس، باسيل، أمبروز، جيروم، أغوستين، وآخرين كثر، ويمكن لأي مُحَمَّدي العودة إليهم يسر، فقط إذا ما أخذ عناه تعلم اللغتين الإغريقية واللاتينية. إن هذا الضرب من البرهان المتزامن لهو الأقوى الذي يمكن تقديمه.

لا يجوز الرد على مجموعة الحجج بالقول إن في مخطوطات الكتب الموجودة حالياً قراءات مختلفة، وتعارضات، ومقاطع يؤكد المُحَمَّدِيُّون أنها غير متفقة مع التنزيل الحق، كما تلك المتعلقة بالحالة النبوية وموت يسوع. إذ لو قام هؤلاء بفحص المخطوطات القديمة، والترجمات والشواهد المُحال

(1) أوكتابلا أوريجن (Octapla of Origen): جزء من العهد القديم قام بإعداده أوريجن في القرن الثالث الميلادي، ويتضمن النص العبري بالإضافة إلى سبع ترجمات إغريقية له، مكتوبة في ثمان أعمدة متوازية. م.

إليها أعلاه، فإنهم سيجدون بأنَّ القراءات المختلفة، والتعارضات المفترضة، والمقاطع التي تثبت موت المسيح وتؤكد مذهب التثليث، كانت موجودة - مثلما هي قائمة الآن - في الكتب المتداولة في زمن مُحَمَّدٍ وقبل قرون منه، وفي تلك الكتب بالذات، أعني، تلك التي يؤكد مُحَمَّدٌ في القرآن دائماً وبشكلٍ غير مشروط حقيقتها. إذًا، ليس لدى المسلم الصادق من خيار غير قبول تلك الكتب والإيمان بها كما هي الآن.

ثامناً - إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْكِتَابِ، ودراستها فرض على كُلِّ المسلمِ.

وإذا كان ذلك هو الحال، فإنَّ المسلم الصادق والمخلص مدعوٌ جدًّا إلى دراسة الموضوع، وأن يرضي نفسه - وبوسعه أن يفعل بسهولة - بأنَّ الكتاب المقدَّس في يومنا الحاضر هو الكتاب المقدَّس في زمن مُحَمَّدٍ. وهو مدعوٌ لأن يوقر ويشرف الكتاب المقدَّس، نظير ما قام به معلَّمه بانتظام، عندما اعترف برفعته بشكل واضح المعالم. والمُحَمَّدِيُّ مدعوٌ لأن يؤمنَ به على أنه كلمة الله كي يُؤتِيَ «أُجُورَهُمْ»، وهو الوعد الخاصُّ بالمؤمنين الصادقين.

ولقد حذَّر من تجاهله أو الكفر به، لئلاً يتعرَّض لـ «عَذَابٍ مُهِينٍ»، الذي أعدَّه الله للكافرين، ذلك أنَّهم «يُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» من كلمة الله (ف 102). وقد حذَّر من رفض معرفة «الكتاب المُسَيَّنِ»، الذي هو «الفرقان، وَصِيَاء، وَذُكْرًا لِلْمُتَّقِينَ؛ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ، وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ»؛ لأنَّ الوحي «تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ»؛ لأنَّ الذي يرفض ذلك، وحسب حُكْم النَّبِيِّ نفسه «فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا». علاوة على ذلك، فإنَّ عليه أن يحذَّر من التجديف (مثل بعضي المسلمين الفاسدين في آيائنا) بالكتاب المقدَّس، كي لا يتقرَّر مصيره مع «الكَافِرِينَ، الظَّالِمِينَ، الْفَاسِقِينَ» (ف 124).

ما هي الوقاحة المخيفة التي تظهر من قبل بعض المُحَمَّدِيِّين المعاصرين (تابعين غير جديرين بهذا الخصوص لنيبهم!) الذين يتحدثون بجهل وبتجديف بحق: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، و﴿الْفُرْقَانِ﴾، ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾!

وبالنسبة إلينا، نحن أهل الكتاب، فإنه وفقا لتعليم نبي الإسلام، فإننا نتبع، ونتمسك بكل من التوراة والإنجيل (ف 127)؛ وإنه، طبقاً للتحدي، فإننا ندرس هذه الكتب التي احتكم إليها في محضر من أهل الجزيرة العربية على أنها شاهد من أجل البحث إن كانت تشهد أم لا على رسالته. وإنه لواجب مقدس على كل مسلم، من أجل الحماية ضد أي ضلال مهلك، أن يفعل الشيء نفسه.

وأخيراً؛ إن جميع المسلمين المخلصين مدعوون للإيمان، ذلك أنه ليس بوسعهم أن يجحدوا بشكل ثابت، تلك الكتب التي هي ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾، و﴿تُوراً﴾، و﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، و﴿ضِيَاء﴾، و﴿ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ قصارى القول، إنها منزلة لهداية أولئك الذين يتبعون وصاياها صوب طريق السلام، وتجعلهم واعين للخلاص. فلماذا إذاً، يتجاهلون مورداً قيماً للغاية للعون الروحي مثل الذي (القرآن نفسه هو الحكم) يوجد في العهد القديم والجديد، ويتأون بأنفسهم عن نوره؟ ليجثوا الكتب باجتهاد، فإنهم سيجدون المغزى الكامل للكتب المقدسة بأن «اللَّهُ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مَصَالِحاً الْعَالَمِ لِنَفْسِهِ»؛ وأن المسيح هو «الطريق، والحقيقة، والحياة»؛ «إن الحياة الأبدية، التي يمكن أن يعرفوها هي أنت، الرب الحق، ويسوع المسيح الذي أرسلته».



فهرس المحتويات

تمهيد 5

الجزء الأول

الفصل الأول: القرآن يُشرح بسيرة مُحَمَّدٍ 9

الفصل الثاني: جمع وترتيب القرآن 37

الترتيب التاريخي التقريبي للسور 42

الفصل الثالث: تعاليم القرآن 51

الجزء الثاني

شهادة القرآن لكتب المهدين القديم والجديد 69

تمهيد 72

القسم الأول: الآيات من السور المنزلة في مكة 75

القسم الثاني: الآيات من السور المنزلة في يثرب 115

القسم الثالث: خاتمة 165

إن المجموعة كاملة وغير متحيّزة 166

- وجود وتداول العهدين القديم والجديد في زمن مُحَمَّدٍ 166
- الْقُرْآنُ يشهد على نزول الْكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ 168
- إِنَّ الْقُرْآنَ يُبْنِي عَلَى الْكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ 170
- مُحَمَّدٌ احتكم إلى الْكُتُبِ، وَعَلَّمَ أَتْبَاعَهَا 171
- الْاِتِّهَامَاتُ ضِدَّ الْيَهُودِ 174
- الْكُتُبُ الْمُقَدَّسَةُ فِي زَمَنِ مُحَمَّدٍ هِيَ نَفْسُهَا الْمَوْجُودَةُ حَالِيًا.... 179
- إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْكُتُبِ، وَدِرَاسَتَهَا فَرَضَ عَلَى كُلِّ الْمُسْلِمِينَ. 181

يهدف المركز غالباً في تركيزه على موضوعات مسكوت
عنها في الثقافة العربية، فاختيار العنوانات لا يأخذ طابعاً
ترفيهاً بقدر محاولته الإسهام في خلق وعي معرفي عقلي
متحرر من دوغمانياته، قادر على استثمار المعرفة
ومنجزاتها المتلاحقة في بناء الذات والجماعة بطريقة
عصرية، وطموحة وأن تُسهم في تطوير الدرس الأكاديمي
وربطه بالطفرات المتصاعدة في العالم الغربي.



تكمُنُ قيمة كتاب «القرآن: نظمه وتعاليمه وشهادته للكتب المقدسة» في أمرين أساسيين، الأول: إنّه كتاب على الرغم من صغر حجمه لكنّه يقدم رؤية شاملة من زوايا مختلفة للقرآن؛ إذ يجتهد المؤلف في استيعاب العناصر الرئيسة للتعاليم والنظم التي جاء بها هذا الكتاب المقدس، وينتقل بشكل مباشر لمتابعة ومقارنة الرواية القرآنية وتناصاتها في كتابي التوراة والإنجيل، أما الأهمية الثانية فتندرج ضمن سياق تاريخ الدراسات القرآنية عند المستشرقين، فيعدّ الكتاب من بين أولى تلك الأبحاث التي درست القرآن وتأثرت بمنهجية وسياق تاريخي مهم يختلف كثيراً عما عليه هو الحال في الدراسات الغربية الحالية التي تتعاطى مع القرآن ودرسه؛ إذ من خلاله يمكن تحديد البدايات الاستشراقية الأولى لدراسة هذا النص المقدس.

هذا الكتاب

مستشرق وموظف إداري إنجليزي (1819 - 1905)، اشتغل في الإدارة المدنية لشركة الهند الشرقية فأقصى فترة طويلة في الهند في مناصب إدارية رفيعة من عام 1837 حتى عام 1876، حتى أصبح السكرتير الخارجي لحكومة الهند في 1865 وفي أثناء عمله الإداري هذا في الهند تعلم اللغة العربية وعُني بالتاريخ الإسلامي، أخذ موير في قراءة المراجع العربية عن السيرة النبوية، وشرع في نشر عدة مقالات في «مجلة Calcutta Review» في عامي 1863، 1864، تناول فيها تاريخ العرب قبل الإسلام، ومصادر السيرة النبوية، وحياة النبي حتى الهجرة، وأصدر هذا كله في كتاب ضخيم بعنوان: «حياة محمد وتاريخ الإسلام» (في 4 مجلدات، لندن 1856 - 1861)، وكان قبل ذلك قد أصدر في 1853 كتابه «حوليات الخلافة»، وتناول الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين حتى سقوط الدولة الأموية. وقد تولى موير إدارة جامعة أدنبرة (في إسكتلندا) من عام 1885 حتى عام 1903.



ويليام موير

The Academic Center for Research
CANADA- TORONTO



الحصول على كتب إصداراتنا

+964 780 226 2494
facebook.com/acadcntr
www.acadcr.com
info@acadcr.com

ISBN 978-1-990131-50-9



9 781990 131509